السلام عليكم

السلام عليكم
تأليف : ليلى جعفر
الإخراج الداخلي : إسلام الحماقي
تصميم الغلاف : محمود حميدو
مدير النشر: أحمد خطاب
رقم الإيداع: 21957 - 2017
الترقيم الدولى: 978-977-6598-15-7
الطبعة الثانية: 2017
إشراف عام : أحمد عبد الجواد

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712
3aberorg@gmail.com
www.3aber.org
عابر 3aber

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

السلام عليكم

ليلى جعفر

إهداء

إن الإنسانية بأسرها في مركب وسفينة واحدة فإما أن ننجو جميعًا وإما أن نغرق جميعًا، وليس للإنسانية خيار لنجدتها إلا بتفاهم شعوب الأرض كلها، وتحقيق التعاون وتحكيم العقل والأخلاق النبيلة التي تدعو إليها جميع الأديان، وتعظيم التسامح بين الأديان والمعتقدات والاتجاهات والألوان والأجناس...

إلى كل العقول المستنيرة.. إلى كل الشعوب المتسامحة.. إلى الإنسانية ككل... أُهدي وجهة نظري المتواضعة في هذا الكتاب..

إلى روح أمي وأبي؛ شكرًا لهما على ما قدماه لي من مبادئ الحب والتسامح وقبول الآخر..

إلى أهلي وأصدقائي..

إلى البشرية كافة..

إلى بلدي الجزائر الحبيبة التي تعلمت فيها معنى الحب والعطاء والتسامح.

تمهيد

تقوم الحضارة الأوربية في سياقها الأساسي على الحقوق المجتمعية ومحاربة الرشوة والمحسوبية، وعلى النظام وإيتاء كل ذي حق حقه، وعلى العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، وعلى سياسة «من أين لك هذا؟"، ومراعاة الضعفاء في المجتمع، وعدم إقصاء أي فئة من فئاته، وعلى الديمقراطية المنظمة المسؤولة على النظام واحترام الوقت، وعلى احترامٍ وتطبيقٍ لِسُلَّم القيم الإنسانية... وهو مع ذلك مجتمع يشوبه بعض التحفظات على الجاليات المسلمة، ذلك التحفظ المشروع الذي يدفعه خوف هذه المجتمعات من أن يلقوا مصير المنطقة العربية، ذلك المصير الذي عانوا منه أشد المعاناة وضحوا بالنفس والنفيس من أجل أن يتخلصوا من آثاره وركامه.

لكن ما يجب على المجتمع الأوربي أن يفهمه تمامًا هو أن الإسلام بريء من كل الشبهات والتهم الملصقة به، وأن ربط الإرهاب والتخلف بأي دين إنما يُدخل العالم في صراع لا ينتهي، تتجلى آثار هذا الصراع على سبيل المثال على بعض الجاليات المسلمة في هذه

المجتمعات الأوربية، والتي تعاني من نظرة سلبية مبالغ فيها، تأثرًا بما تستخدمه وسائل الإعلام الغربية من مصطلحات وألفاظ تشوه الصورة الحقيقية للإسلام وتعاليمه، والطامة الكبرى أن بعض وسائل الإعلام العربية والإسلامية تستعمل نفس المصطلحات، وكأنها ترسخ الحرب الإعلامية على الإسلام والمسلمين، وكان المتوقع منها أن تشرح وتقدم الصورة الحقيقية للإسلام، وألا تصف الجماعات الإرهابية والمتطرفة التي تقوم بعمليات إرهابية بأنها جماعات إسلامية!

ومن المستحسن هنا أن نلقي الضوء على ما يجب أن تقوم به الجاليات المسلمة في البلاد الغربية لتحسين صورة الإسلام والمسلمين في الغرب، فعليها أولاً أن تهتم بتنشئة أجيال من المسلمين تكون قادرة على التكيف مع ثقافة الغرب مع الاحتفاظ بأصول دينها ومفاهيمه الصحيحة، وأن تكون فعالة في الغرب؛ تخدم مجتمعها الذي تعيش فيه، وتكون قادرة على التأثير الإيجابي في مراكز صنع القرار لصالح قضايا وجودها.

هناك أيضًا تقصير في دور البعثات الدبلوماسية في الغرب، حيث لا يرتقي دورها إلى المطلوب، فلم تنجح في أن تكون همزة وصل مع الحضارة الأوروبية، أو أن تخلق تفاعلاً مع الغرب لتحقيق التعايش

السلمي بين الحضارات والشعوب عن طريق تبادل فكري ثقافي دائم من خلال الطلبة والبعثات للتعرف عن قرب إلى الجوانب الإيجابية في كل ثقافة، تحقيقًا لأمر الله سبحانه وتعالى لنا بالتعارف في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[1].

(١) سورة الحجرات - الآية ١٣

مقدمة

«مهما كان وجود الآخر يزعجك، فلا بد أن تعلم أنك لن تتمكن من إبادة كل المخالفين لك.. لذا، فإن عليك تقبلهم»

الاختلاف بين الناس، في شؤون دينهم ودنياهم، أمر طبيعي، وسيبقى هذا الاختلاف قائمًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وهذه حقيقة أكدها القرآن الكريم في كثير من آياته، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾[1]، وكما هو واضح من الآية، فإن الله سبحانه وتعالى لو شاء أن يجعل الناس أمة واحدة متشابهة في أخلاقها ومجتمعة على دين الحق لجعلهم كذلك، ولكنه خلقهم مختلفين في أفكارهم واتجاهاتهم وأشكالهم وألوانهم وانتماءاتهم... وسيظلون كذلك إلى يوم الدين.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حكمة إلهية أرادت أن يكون الناس مختلفين وأن تشملهم رحمة الله، ما دام اختلافهم يهدف إلى الوصول إلى الحق والصواب.

(١) الآية ١١٨ من سورة هود

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

الاختلاف إذن بين الناس في شؤون دينهم ودنياهم أمر بديهي، وسيبقى قائمًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما هذا الكتاب إلا مساهمة مني في سبيل دعم ركائز التسامح وقبول الاختلاف، إحقاقًا للحق وإزهاقًا للباطل.

إن الاختلاف -في حد ذاته - معجزة من معجزات الله في خلقه.. لم يقتصر على الإنسان واختلاف ألوانه وأجناسه، بل تجاوزه ليشمل عالم الحيوان والأشياء والمخلوقات الأخرى... وبهذا يكون الاختلاف سر جمال العالم.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]، هكذا يعلمنا ديننا الحنيف أدب التعايش مع الآخر وأسلوب الحوار معه وتقبله وتشجيع الحوار للوصول إلى الحقيقة وتقبل رأي الآخر بصدر رحب.

ومن البديهي أن نعي أن البشرية لو كانت كلها على شكل واحد

(١) من الآية ٣٥ من سورة الأنعام

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران

ولون واحد بنفس الديانة ونفس الأفكار والاتجاهات لكان هذا العالم مملاً، لكنّ ما يجعل العالم جميلاً ومبهرًا هو هذا الاختلاف في اللون والدين والأفكار والاتجاه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١).

وقال الحكماء قديمًا: الحق لم يُصِبْهُ الناسُ جميعًا، ولم يُخْطِئُوهُ في كل وجوهه، بل أصاب بعضهم جهة منه وأصاب الآخرون جهة أخرى.. وإن مشكلتنا في هذا العصر أن الكثيرين يحاولون فرض آرائهم على الآخرين، في حين يحثنا ديننا الحنيف على السؤال وليس ادعاء المعرفة: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)، فالحقيقة هي ما يجب أن نصبو إليه جميعًا، وليس المكانة الشخصية، ولا بد لكل واحد أن يعلم أن هناك من هو أعلم منه: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣).

ولكي تكون الحضارة المستقبلية حضارة إنسانية فإني أعتقد أن من الضروري تشكيل مجلس عالمي يمكن أن نطلق عليه «مجلس الإنسانية»؛ تعترف به دول العالم، ويساند دور الأمم المتحدة التي

(١) الآية ٢٢ من سورة الروم
(٢) من الآية ٧ من سورة يوسف
(٣) من الآية ٧٦ من سورة يوسف

تَراجع دورها في حل الصراعات القائمة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الإبادات الجماعية التي تعرض لها المسلمون في بورما وغيرها من مناطق الصراعات المختلفة.

إن الدين الإسلامي دين سلم وسلام، وقد ساوى الله عز وجل بين نعمة الأمن والأمان و القوت لما لها من ضرورة قصوى تؤدي بالإنسان إلى حياة مستقرة، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ (١). والإسلام إذن دين قوامه السلام والاستقرار والحوار الراقي بين الحضارات وقبول الآخر مستندًا على قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (٢)، ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ ﴾ (٣).

وللنفس الإنسانية في الإسلام مكانة سامية على أعلى قدر من السمو والاهتمام، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي

(١) الآية ٤ من سورة قريش
(٢) من الآية ١٢٥ من سورة النحل
(٣) الآية ٣٤ من سورة فصلت

﴿ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1] فالنفس هنا عامة غير موصوفة وغير محددة، فهي نفس اليهودي والمسيحي والمسلم والبوذي والملحد... لم يحدد الله الاتجاه الديني أو الفكري لهذه النفس، وهذا يعني بوضوح أن الإسلام يُعظّم النفس البشرية في مفهومها المطلق بغض النظر عن انتماءاتها المختلفة.

تنتابني الدهشة والذهول كلما أركب الطائرة لأسافر إلى بلد ما وأتساءل عن هذا التناقض في الذكاء الإنساني الذي جعله يطير في السماء بكل هذه الكتلة وهذه الأطنان ويتحدى الجاذبية الأرضية بقوتها، واستطاع كذلك أن يصعد إلى القمر ويكتشف الكواكب... ورغم كل ذلك لا يتمكنون من أن يتسامحوا ويتقبلوا بعضهم ويتعايشوا في سلام!!

كيف لم يدركوا أن البشرية كلها في المركب ذاته؛ إن غرقت فستغرق بنا كلنا، وإن نجت فستنجو بنا كلنا؟! كيف لم يدركوا أن ليس للبشر على الكرة الأرضية خيار إلا التعايش والسلام؟! إننا نعيش في كوكب واحد، وما يحصل في أي بقعة عليه لا يمكن أن يكون بمعزل عن بقيته ولعل ما نراه بشكل يومي من مشاهد قوارب الموت التي تحمل بشرًا فارين من الحروب ومن الأزمات الاقتصادية،

(١) من الآية ٣٢ من سورة المائدة

فيحملون أزماتهم ومشكلاتهم إلى المجتمعات التي يرحلون إليها يؤكد هذا الأمر.

لا يوجد إنسان يهاجر من تلقاء نفسه؛ إن الهجرة شرخ في النفس البشرية؛ لا يكاد المرء يتخلص من آثاره مادام حيًّا، ولا أحد يهاجر بسبب سعادته، فالمهاجر يعاني الأمرّين، فهو كالزرعة التي تُقتلع من بيئتها لتتأقلم مرة ثانية مع ظروف وبيئة أخرى غريبة عنها.. يتعلم المهاجر كل شيء عن حياته الجديدة لكن على كبر، وما أصعب ذلك! اللغة والعادات والتقاليد والثقافة... فيعاني أشد المعاناة ليندمج مع المجتمع الجديد.. منهم من ينجح، ومنهم من يموت غرقًا في البحر، ومنهم من يموت بالحسرة...

إن وجودي في أوربا سمح لي بتكوين فكرة عن بعض أوساط المثقفين، وبعض أوساط الإعلام في العالم الغربي بشتى وسائله، التي تُذيع وتُروّج للنظرة السلبية للعالم الإسلامي، رغم اعترف هذا المجتمع الغربي نفسه وبشهادة معظم المفكرين والمؤرخين بأن العالم الإسلامي كان سببًا في تقدم أوربا ونهضتها! لكنّ سلبياتٍ كثيرةً من الإرث الثقافي في العالم الإسلامي هي ما يمكن أن تكون عونًا لهؤلاء المهاجمين في الترويج لنظرتهم واستمرار مهاجمتهم للإسلام بتكرارها،

رغم أن الإسلام منها بريء وأنها لا تمت له بأية صلة، ومنها غياب الضمير في بعض الأوساط، وكثرة إلقاء اللوم على المرأة وتحميلها مسؤولية كل مشكلات المجتمع دون الرجل، وعدم تحقق العدالة، إلخ من الظواهر السلبية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، والتي يمكن وضعها كلها في إطار الخلط بين الإسلام والظواهر الثقافية في البلدان الإسلامية العربية وغير العربية..

لقد ظهر الإسلام في عصر كان يسود فيه الجهل وظلم الإنسان لأخيه الإنسان إلى جانب وأد البنات والحروب القاتلة لعشرات السنين...

والإسلام لم يهدف إلى صنع رجال دين، يعيدون ويكررون الأوامر الدينية فحسب، وإنما هدف إلى صناعة مجتمعات علمية متقدمة ومتطورة؛ تواكب احتياجات الإنسان حسب تطوره وتنوع مطالبه، ليصنع الحضارة والتقدم بالعلم والعدل وبتفعيل سُلّم القيم الذي أصبح شبه منعدم في عصرنا الحالي.

من الضرورة إذن أن نلتزم بهذا المنهج الديني، وأن نُفعّل دور العلماء في كل مجالات العلوم والتجارة والطب والسياسة والزراعة إلخ من مجالات الحياة، وأن تدار دولنا على أسس واقعية ومدنية.

الإسلام والعلم

إن الحضارة الإسلامية حضارة متجانسة، هذا لأن الدين الإسلامي هو الذي وجهها وأبدعها منذ أربعة عشر قرنًا، ولم يمضِ على هذه الحضارة الحقيقية قرن من الزمان حتى كانت الدولة الإسلامية قد امتدت من المحيط الهندي شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، وإلى وسط إفريقيا جنوبًا.

إن فجر النهضة في أوربا أو ما يسمى بالـ«رنيسانس» (renaissance) لا يمكن أن يغفل أثر الحضارة الإسلامية في تاريخ أوربا ومدى تأثيرها في تقدمها.

وقد قامت الحضارة الإسلامية في أصلها على اللغة والدين، فاللغة العربية من أغنى اللغات السامية والعالمية؛ نزل بها القرآن الكريم ليزيدها شرفًا ويعلي من شأنها ومكانتها، وبفضل التقدم العلمي في شتى المجالات انتصرت اللغة العربية على كل اللغات السائدة في البلاد الذي فتحها العرب آنذاك، فحلت مكان اليونانية واللاتينية والسريانية وغيرها من اللغات، وقد تبادلت اللغة التأثير والتأثر مع اللغات التي

احتكت بها، كعادة كل اللغات، فعرّبت بعض الكلمات اليونانية من خلال الترجمة، واكتسبت ألفاظًا ومعاني جديدة، وبرهنت على أنها لغة حية عالمية تصلح لكل زمان ومكان.

ويظهر فضل العرب في قيامهم بترجمة أمهات الكتب اليونانية إلى لغتهم، مع حفاظهم على تراث الفكر اليوناني، حتى أن كثيرًا من مؤلفات الفلاسفة والعلماء اليونانيين اندثرت تمامًا، ولم يعد لها وجود إلا بالتراجم العربية، وكان الأوربيون أكثر تلهفًا على الشروح التي وضعها علماء المسلمين لذلك التراث.

إن تجانس الحضارة الإسلامية جانب من إبداع الدين الذي أنشأها منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، حين وجه هذه الحضارة الكبرى، وأظلها بظله، وطبعها بطابعه، وساهم في كل ميادينها بنصيب وافر، وبالتالي فقد ساهم بنصيب وافر في الحضارة الإنسانية، على الكيفية التي سنوردها في الصفحات التالية.

بمجرد أن شبّ الإسلام قرنًا من عمره، حتى امتدت دولته بين المحيطين: الهندي شرقًا، والأطلسي غربًا، ووصلت إلى وسط إفريقية جنوبًا، وإلى أوربا شمالاً... ولم يكن هذا الامتداد امتدادًا سياسيًّا فحسب، وإنما كان له أكبر الأثر في الميدان الحضاري، وكان صاحب

الفضل المباشر في انتقال أوربا من العصور الوسطى: عصور الظلام إلى فجر النهضة الحديثة وهي الحقيقة التي لا يمكن لمنصف أمين أن ينكرها.

كيف قامت الحضارة الإسلامية:

يؤمن معظم الباحثين في الحضارة الإسلامية أنها قامت على دعامتين أساسيتين: اللغة، والتشريع الديني، وكانت اللغة العربية الأداة التي عبرت بها هذه الحضارة عن نفسها، وليس جديدًا التأكيد على اعتبارها واحدة من أغنى اللغات السامية، وقد ازدادت شرفًا وبحثًا ودراسة وحفظًا بسبب نزول القرآن الكريم بها، وهو الذي جذب الكثيرين ليتعلموها حتى يتمكنوا من فهم المقاصد الشرعية المنقولة بواسطة هذه اللغة، ما أعلى مكانتها وأكسبها تقديرًا كبيرًا من المتعاملين معها، ولهذا فقد تمكنت اللغة العربية من أن تحل محل اللغات السائدة في البلاد التي فتحها العرب، مثل اليونانية واللاتينية والسريانية والقبطية وغيرها... وعندما بدأت حركة الترجمة عن اليونانية، استطاعت اللغة العربية أن تكتسب ألفاظًا جديدة، ونجحت في تعريب بعض الألفاظ غير العربية، وبرهنت على أنها لغة حية عالمية؛ تصلح لكل زمان ومكان.

أما التشريعات الدينية كدعامة ثانية قامت عليها الحضارة الإسلامية، فقد اعتمدت على مقاصدها العليا في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، باعتبارها عقيدة وشريعة، دينًا ودولة، إيمانًا وعملاً، حضارة وثقافة...؛ نسخت ما سبقها من تشريعات، وأسست لحياة جديدة، تحمل تأسيسها والدعاية لها هؤلاء العرب الذين كانوا يعيشون حياة قبلية رعوية جافة، لم تعرف مظاهر العمران أو العمق السياسي لتأسيس الدول وبناء الحضارة، وقد كانوا يعيشون على هامش الإمبراطورتين الكبيرتين المترامیتین في شمال شبه الجزيرة العربية: الفرس والروم، بكل ما كان لهما من نفوذ واتساع وعظمة، واستطاع الإسلام أن يوحّد بين قبائل العرب في نحو ربع قرن من الزمان، ومكّن أتباعه من هزيمة هاتين الدولتين العظيمتين، ونشر الإسلام في كل مكان متاحًا من أرض وقتها.

هل بقي المسلمون بعد ذلك على حالهم الأول بدوًا رُحَّلاً، أهل وبر ومدر؟ في الحقيقة لم يحدث هذا، بل أحدث المسلمون ثورة حضارية وفكرية في العالم كله في العصور الوسطى، وضربوا أروع الأمثلة في السلوكيات الإنسانية النبيلة، بفضل ما هداهم إليه الشرع الإسلامي الحنيف والذي انتشر انتشارًا سلميًّا خاليًا من السيف والقتال إلى

النفوس والقلوب التي وجدت في تسامح العرب وقتها دليلاً على أفضلية هذا الدين وقدرته على جعل حياة الناس أفضل وأكثر هدوءًا وسلامًا، وهو ما أجمعت عليه الوثائق التاريخية التي تناولت هذه الفترات التاريخية ومراحل انتشار وظهور الإسلام في العالم.

تمكنت الحضارة الإسلامية من خلق تراث فكري واجتماعي ومادي عظيم، تمثل في علوم الدين واللغة والأدب ونظم الحكم والعلوم الطبيعية والعلوم التجريبية... وذلك عبر أجيال من العلماء والمفكرين؛ ومن خلال الترجمة والنقل والشروح والإضافات وتصحيح والأخطاء والابتكار وخلق المناهج العلمية واختبارها وتحويل الاتجاه التأملي في العلوم من الانغلاق على النفس إلى الارتباط بالواقع والتأثر بحركته، وهو ما أخذته الحضارة الأوربية حرفيًّا، وتعاملت معه تعامل التلميذ مع الأستاذ، والتزموا بمنهجه التزامًا تامًّا للانتقال إلى العصر الحديث أو عصر النهضة كما في أدبيات أوروبا.

كيف نشأت الحضارة الإسلامية؟

لم تكن شبه الجزيرة العربية في منأى عن التطور ولا منعزلة عن جيرانها من أصحاب الحضارات المجاورة والمعاصرة والبائدة حتى، فقد كانت بحكم النشاط التجاري الكبير والدائم لها في اختلاط

مباشر مع هؤلاء جميعًا، وكان لها إسهام ولو بسيطًا في حركة الحضارة الإنسانية، ويشهد على ذلك سد مأرب وبقايا آثار حضارتي المناذرة والغساسنة في شمال شبه الجزيرة، إلا أن هذا لا يدفعنا إلى القول بأن العرب قبل الإسلام كانوا يمتلكون تراثًا حضاريًّا بمعنى الكلمة التي تنطبق على حضارات مصر والشام والعراق وفارس والصين والهند...

لكن هذا الأمر يختلف تمامًا في المراحل التالية للإسلام، وخصوصًا فيما بعد بداية العصر العباسي، ويمكن اعتبار فترة حكم الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ / ٨١٣ – ٨٣٣م) تتويجًا لمفهوم النهضة الحقيقية في مفهوم الحضارة الإسلامية، بعدما "أسس بيت الحكمة في بغداد، وجعل لها مكتبة ضخمة، وعيّن فيها طائفة كبيرة من المترجمين، وأرسل مجموعة من العلماء إلى البلاد المجاورة، وبخاصة الدولة البيزنطية للبحث عن المخطوطات وجلبها أو نقلها، واستمرت حركة الترجمة حتى نهاية القرن التاسع الميلادي، واستطاع المترجمون نقل أمهات الكتب من اليونانية والسريانية وغيرهما إلى اللغة العربية، فقد ترجم أبو يحي البطريق أهم مؤلفات جالينوس وأبقراط وبطليموس السكندري عن اليونانية، وترجم يحي بن ماويه كثيرًا من كتب الطب، وترجم الطبيب النيسابوري حنين بن إسحاق إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل

جالينوس، وإلى اللغة العربية تسعًا وثلاثين رسالة أخرى، فضلاً عن ترجمة الكتب الطبيعية والمقولات والأخلاق لأرسطو وبعض كتب أفلاطون»[1].

هذه العلاقة الوثيقة بالحضارات الأقدم التي احتذاها المسلمون في تأسيس حضارتهم لم تتوقف عند النقل والمحاكاة، وإنما درست، وشرحت، ونقدت، وأضافت، وحذفت، وابتكرت...، وهو ما تفعله كل حضارة في علاقتها بالمنجز الإنساني السابق عليها، وإن كان بعض هؤلاء العلماء غير عرب، فإن هذا لا ينال من كون هذه الحضارة عربية إسلامية، فقد كان هذا الإنجاز نتيجة لتعلم ونضج ونبغ هؤلاء العلماء في ظل الدولة العربية الإسلامية، وهو ما يؤكد على ثقافة التسامح واحترام العلم التي سادت الدولة الإسلامية.

في هذه الفترة التي تقع بين القرنين: الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين، أصبح العالم الإسلامي، وحدة حضارية كبرى لم يشهد التاريخ مثيلاً لها، وكانت هناك مراكز حضارية ممتدة عبر جغرافية الدولة الإسلامية مترامية الأطراف، في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وسمرقند وبُخارى والري والقيروان وغيرها.

---

(١) محاضرات في تاريخ العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية – د. حسنين محمد ربيع ص٩، و١٠

نقاط الالتقاء بين الدولة الإسلامية وأوربا:

وفي هذه النقطة نجيب عن سؤال جوهري ومهم، وهو: كيف استطاعت أوروبا أن تستفيد من الإنجاز الكبير للحضارة الإسلامية؟ منذ القرن الحادي عشر الميلادي بدأ النشاط التعليمي والثقافي للكنيسة والمؤسسات الدينية التابعة لها ومنها الأديرة والكاتدرائيات يضمحل، وبدأت المدن التجارية مثل جنوة، والبندقية (فينيسيا)، ونابولي... تظهر على مسرح الحياة الأوربية كعنصر فعال في بناء حضارة أوروبا في العصور الوسطى، وبدأ الأوروبيون يبحثون عن مراكز جديدة للثقافة والمعرفة والحضارة، بعد أن كانت الكنيسة المنبع الوحيد للتعليم، وأخذت الحضارة الإسلامية تشق طريقها إلى غرب أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وسلكت عدة معابر، أهمها: بلاد الأندلس، وجزيرة صقلية، وبلاد الشرق الأدنى وما ارتبط بها من حركة الترجمة... وهنا نتناول كل معبر من هذه المعابر بكلمة موجزة لبيان أهميته في الاتصال الحضاري بين العالم الإسلامي من جهة والغرب الأوروبي من جهة أخرى، لتوضيح أثر الحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية.

١) بلاد الأندلس: إسبانيا الإسلامية:

عندما فتح المسلمون إسبانيا في أوائل القرن الثامن الميلادي، نقلوا هذه البلاد من مرحلة التأخر والفوضى وانتشار الجهل والفتن إلى مرحلة استقرار وازدهار حضاري، فقد عملوا على إحياء الأرض الميتة، وتعمير المدن الخربة، وازدهرت التجارة بعد أن فرضوا رقابة على الأسواق وعلى المكاييل والموازين، وعيّنوا شرطة في المدن، وَأَجْرَوا إحصاء للسكان، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع، وتحرر العبيد باعتناقهم الإسلام، وأدخل المسلمون محاصيل وأنواعًا كثيرة من الفواكه والثمار، منها الأرز وقصب السكر والقطن والموز والرمان والبرتقال والليمون والسفرجل والخوخ ونخيل البلح والتين... وعملوا في التعدين، فاستخرجوا من المناجم الذهب والفضة والقصدير والنحاس والحديد والرصاص والشب والكبريت والزئبق.

وأدخل المسلمون صناعات متعددة إلى بلاد الأندلس، فاشتهرت مرسية بالصناعات الحديدية، وطليطلة بصناعة السيوف، وقرطبة بصناعة الدروع والنسيج والسجاد، وازدهرت الثغور الأندلسية وبخاصة برشلونة وبلنسية ومالقة وإشبيلية. وأخذت السفن التجارية تجوب هذه الثغور وغيرها.

وبلغت الحضارة الإسلامية الذروة في بلاد الأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، فقد أصبحت مدينة قرطبة عاصمة للخلفاء الأمويين، ومن أعظم مدن العالم حضارة وقتذاك، فكانت شوارعها مرصوفة، تُضاء ليلاً، وانتشرت الحدائق والمتنزهات بها، وتشقها قناة تحمل المياه إلى المنازل والحدائق والحمامات. وغدت طليطلة وغرناطة وإشبيلية مراكز علمية متقدمة، ومدارس ومعاهد حافلة بالعلماء والشعراء والأدباء والنحويين والأطباء وعلماء الفلك... وساعد على هذه النهضة العظيمة في مدن الأندلس سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون تجاه أهل الذمة من المسيحيين واليهود، فأقبل المستعربون الإسبان على استخدام اللغة العربية، وفضلوها على اللاتينية، وقام هؤلاء المستعربون بدور السفراء والوسطاء بين الحضارة الإسلامية المزدهرة وسكان غرب أوربا، وبخاصة بعد سقوط طليطلة في أيدي المسيحيين سنة ١٠٨٥ م، إذ ازداد عبور طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوربا جبال البرانس إلى المدن الأندلسية للاستفادة من علوم المسلمين. وترجم إلى اللغة اللاتينية مئات من مؤلفات علماء المسلمين في مختلف العلوم والفنون، كما تُرجمت كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وغيرهم.

٢) جزيرة صقلية:

كانت جزيرة صقلية المعبر الثاني الذي انتقلت منه الحضارة الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى، ففي سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م استولى المسلمون على جزيرة صقلية من البيزنطيين، وفتح المسلمون مدينة بالرمه سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م، وكان فتحها خطوة كبيرة أدت إلى استيلاء المسلمين على كل مدن الجزيرة ما عدا سيراكوز، واهتم المسلمون بالزراعة، فحفروا الترع والقنوات، وأدخلوا زراعة القطن وقصب السكر، واستخرجوا من مناجمها الفضة والحديد والنحاس والكبريت، وأدخلوا صناعة الحرير، ونشطت التجارة في جميع أنحاء صقلية، وأنشأ المسلمون في صقلية حضارة إسلامية رائعة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم في هيئة قصور وبقايا مساجد وحصون، وأصبحت بالرمه وغيرها من المدن مراكز هامة للحضارة الإسلامية، ومعبرًا من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا.

وعندما انتهى حكم المسلمين لجزيرة صقلية أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وجدت الحضارة الإسلامية في ملوك النورمان خير مشجع لها، ولما وجدوه من تقدمها في الفنون والعلوم والآداب والصناعات، وشجع الملك روجر الأول (١٠٦١ – ١١٠١ م) وخلفاؤه مظاهر الحضارة الإسلامية، واستعانوا بعلماء وحراس من العرب، وأحاط

أحدهم وهو الإمبراطور فردريك الثاني نفسه بمظاهر شرقية عربية، ويقال إنه تعلم اللغة العربية، وشجع ترجمة الكتب العربية، وشجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء والشعراء العرب.

٣) حركة الترجمة:

ترجم المسلمون كثيرًا من مؤلفات اليونانيين إلى السريانية أولاً فالعربية بعد ذلك، ولم تلبث هذه الترجمات للتراث اليوناني أن أصبحت فيما بعد على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلى غرب أوربا الذي لم يعثر على ذلك التراث إلا في تلك الترجمات العربية، ولم يعد هناك طريق أمام الغرب الأوربي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي سوى الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ولم تكن جميع الكتب التي ترجمها الأوروبيون إلى اللاتينية عندئذ من تأليف العرب أو ابتكارهم، إذ كان جانب منها أصله يوناني، ثم ترجمه العرب إلى لغتهم، ويظهر فضل العرب في أنهم ترجموا وحافظوا على تراث الفكر اليوناني، حتى أن كثيرًا من مؤلفات الفلاسفة والعلماء اليونانيين اندثرت تمامًا ولم يعد لها وجود إلا في الترجمات العربية، وكان الأوروبيون أكثر تلهفًا على الشروح التي وضعها علماء المسلمين لذلك التراث، ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي حرصت جامعة باريس على الربط بين فلسفة أرسطو وشروح ابن رشد لهذه الفلسفة.

أما أهم مراكز الترجمة عن العربية إلى اللاتينية، فكانت مركزين: الأندلس وجزيرة صقلية. والواقع أن الأندلس كان المركز الرئيسي للترجمة من العربية إلى اللاتينية، فاتجه إليه كثير من أعلام النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر؛ يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية في مختلف العلوم والآداب، ومن هؤلاء الذين قصدوا مدن الأندلس في القرن الثاني عشر أديلارد الإنجليزي وجيرارد الإيطالي، هذا عدا أهل الأندلس من المستعمرين الذين اشتغلوا بنقل المعارف العربية وترجمتها، مثل بطرس ألفونس، وحنا الإشبيلي، ونشطت حركة الترجمة عن العربية في برشلونة وطليطلة، أما طليطلة فكان لها شأن كبير في ذلك الميدان، إذ أنشأ ريموند رئيس أساقفة طليطلة مركزًا كبيرًا للترجمة من العربية في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وتمت في ذلك المركز ترجمة كثير من أمهات المصادر العربية إلى اللاتينية.

وتجدر الإشارة إلى جهود زعيم حركة الترجمة عن العربية جيرارد (١١١٤ - ١١٨٧) الذي سافر إلى طليطلة حيث قضى فيها عدة سنوات؛ تعلم فيها العربية على يد أحد المستعربين، وترجم إلى اللاتينية أكثر من سبعين مؤلفًا عربيًّا، تناولت مختلف ألوان المعرفة، وبخاصة الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب، على أن وفاة جيرارد سنة

١١٨٧، وهو في الثالثة والسبعين من عمره، لم تؤثر في سير حركة الترجمة عن العربية، إذ ظهر في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ألفرد الإنجليزي، وميخائيل سكوت الأسكتلندي، وهرمان الألماني، وجميعهم عملوا في ترجمة المراجع العربية في مدن الأندلس.

أما جزيرة صقلية فقد أسهمت بنصيب مباشر في حركة الترجمة عن العربية، وساعد على قيام صقلية بهذا الدور موقعها المتوسط في عالم البحر المتوسط، واحتفاظها بنسبة كبيرة من المسلمين، وثقافتها العربية في عصر النورمان الذين خَلَفوا العرب في حكم الجزيرة، وقد تُرجم في صقلية كثير من الكتب العربية، ففي سنة ١١٥٠م ترجم إيوجنيوس البالرمي كتاب بطليموس السكندري في المرئيات عن اللغة العربية، وفي سنة ١١٦٢ تُرجمت عن العربية كتب أخرى في الفلك والرياضيات.

والآن بعد أن استعرضنا المعابر التي عَبَرَتْ عليها الحضارة الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى، ننتقل إلى إلقاء بعض الضوء على أثر الحضارة الإسلامية في النهضة الأوربية، وبخاصة في بعض الميادين التي ساهمت بنصيب وافر في الحضارة الإنسانية: الأدب، والرياضيات، والفلك، "علم الهيئة"، الطبيعة "الفيزياء"، والكيمياء، والطب، والصيدلة "الأقربازين".

الأدب:

تأثرت الآداب الأوربية منذ القرن الحادي عشر الميلادي بموضوعات الأدب العربي، فقد وجد الأوربيون في الأدب العربي مجالاً خصبًا بعد أن تيقنوا ما عُرف به من خصوبة وإبداع، ويظهر هذا التأثير واضحًا في لون من ألوان الشعر الأوربي انتشر في جنوب فرنسا، عُرف باسم شعر التروبادور، وجاء هذا الشعر عن طريق الاقتباس من الأدب العربي الأندلسي الذي امتاز بالمبالغة في الغزل الرقيق و الرثاء الباكي، وفي الحب والفروسية، ومعاناة الحرمان والتغني بالمرأة ونحو ذلك. ومن المعروف أن الأندلس امتاز بنوع خاص من الشعر الرقيق ظهر في صورة الموشحات والأزجال، وازدهر هذا الفن في بلاد الأندلس بصفة خاصة.

وظهر لون مشابه للشعر الأندلسي في شمال إسبانيا وإقليم بروفانس وجنوب فرنسا، بل يرى بعض الباحثين أن غزل الفروسية الذي انتشر فيما بعد في ألمانيا وفي جنوب فرنسا وبعض بلدان غرب أوربا قد تأثر إلى حد كبير بأشعار التروبادور التي تغنى بها فرسان فرنسا، واستمد أصوله من الزجل الأندلسي، من حيث الموضوعات والوزن وتنويع القافية بدلاً من منوال الشعر الكلاسيكي اليوناني واللاتيني.

ووصل التأثير العربي الإسلامي في أشعار التروبادور في موضوعات هذه الأشعار وفي طريقة صياغتها، وتميز هذا الشعر -على سبيل المثال - بقوة الخيال وعفته ووصف الزوجة الوفية المثالية، وهذه موضوعات لم تعرفها آداب أوربا العصور الوسطى، التي انتهكت المرأة وأَذَلَّتْها، ومما يبرهن على ذلك أنه بمقارنة الأزجال التي كتبها الشاعر الأندلسي ابن قزمان في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي وأشعار التروبادور في إقليم بروفانس، يتضح أن أشعار التروبادور قد صيغ معظمها في الأوزان التي صيغت فيها أشعار ابن قزمان، وشرح الأستاذ الدكتور سعيد عاشور ذلك بأنه إذا كان الشعراء العرب يرون أن الطاعة شرط أساسي من شروط الهوى، حتى قرر ابن حزم الأندلسي أن من أحب أطاع، فإن شعراء التروبادور تأثروا بهذا الاتجاه، وخاطب بعضهم المعشوقة بألفاظ تنم عن الطاعة والاحترام بل الخضوع، منها "مولاي"، و"سيدي"، كما وصفها شعراء العرب، وتحدث هؤلاء الشعراء عن المرأة في شعرهم بضمير المذكر، ويرى البعض أن لفظ التروبادور ليس إلا تحريفًا للعبارة العربية "دور طرب"، مع تقديم المضاف إليه على المضاف، والصفة على الموصوف، فقالوا "طرب دور"، وَحُرِّفَت إلى "تروبادور".

وظهرت المؤثرات العربية في الآداب الأوربية، فمن المعروف أن قصص "ألف ليلة وليلة" طُبعت طبعات عديدة في أوربا في فجر العصور الحديثة، بعد ترجمتها من اللغة العربية، واقتبس الأوربيون موضوعات أدبية نقولها إلى الآداب الغربية، من ذلك –على سبيل المثال – الكاتب الإيطالي الشهير بوكاشيو؛ سار في كتابه "الأيام العشرة" على منوال قصص "ألف ليلة وليلة" التي كانت منتشرة في مدن مصر والشام، خلال فترة الازدهار الحضاري في عصر سلاطين المماليك، وحكى بوكاشيو في كتابه مائة قصة نسبها إلى سبع سيدات وثلاثة رجال، عاشوا في مكان منعزل خوفًا من تعرضهم لمرض الطاعون، وقص كل منهم حكاية على أصحابه في كل صباح للتغلب على الفراغ والملل، وانتشرت قصص "الأيام العشرة" في بلدان غرب أوربا، واقتبس منها الكاتب الإنجليزي وليم شكسبير موضوع مسرحيته "العبرة بالخواتيم"، وسار شوسر على نهج بوكاشيو، فكتب "قصص كانتوبوري" على نفس المنوال، مما يدل على أثر قصص "ألف ليلة وليلة" في الآداب الغربية.

يضاف إلى ذلك أن دانتي فاق غيره في تأثره بالأدب العربي، فقد عاش دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١م) في جزيرة صقلية خلال فترة ازدهار

الحضارة الإسلامية في هذه الجزيرة، وكتب "الكوميديا الإلهية"، وهناك أوجه شبه واضحة بين أوصاف الجنة عند محي الدين بن عربي وأوصافها عند دانتي، كما لا يوجد شك في أن دانتي اطلع على "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، وتأثر بقصة الإسراء والمعراج في وصفه للعالم الآخر، كما أن قصة روبنسن كروزو مأخوذة عن قصة "حي بن يقظان" التي كتبها ابن طفيل الأندلسي (١١١٠ - ١١٨٥م)، وتُرجمت إلى اللغة اللاتينية سنة ١٦٧١م، وإلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨م.

وتأثرت الآداب الأوربية بالمقامات العربية التي تتكون من قصص متنوعة بطلها شخص واحد، يستغل خفة روحه وسعة حيلته في كسب قوْته، وأشهر هذه المقامات مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان الهمذاني التي تأثر بها الأدباء الإسبان عندما كتبوا قصصًا عن حياة المشردين والصعاليك، ومنها -على سبيل المثال - قصة الفارس ثيفار التي تضم إلى جانب روحها الشرقية حادثة من الحوادث التي اقترن اسمها في الروايات العربية باسم جحا، كما أن قصة السندباد تُرجمت إلى اللغة القشتالية عام ١٢٥٣م تحت عنوان "كتاب مكايد النساء وحيلهن"، وكان لها تأثير كبير على الأدب الأوربي في العصور الوسطى.

وتجدر الإشارة هنا الأثر الكبير للغة العربية في اللغات الأوربية، فقد أصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة والفكر في عالم العصور الوسطى، والدليل على ذلك كثرة الألفاظ العربية في كثير من اللغات الأوربية الحديثة.

وقد وضع دوزي dozy معجمًا للألفاظ ذات الأصول العربية الشائعة في اللغتين الإسبانية والبرتغالية، وتركت اللغة العربية أثرًا واضحًا في اللغتين الفرنسية والإيطالية وغيرهما، ويوجد في اللغة الإنجليزية ما يقرب من ألف كلمة مشتقة من كلمات عربية، ومن هذه الكلمات على سبيل المثال:

القطن	Cotton	**المسك**	Musk
جرة	Jar	**ليمون**	Lemon
سكر	Sugar	**بازار**	Bazaar
تعريفة	Tariff	**وزير**	Vizier
كحل	Kohl	**دينار**	Dinar
زعفران	Saffron	**الجبر**	Algebra

الرياضيات:

أخذ العرب نظام الترقيم من الهنود و قاموا بتطويره و تحسينيه

ليلائمهم (١,٢,٣,٤...) وقد قام الخوارزمى بتصميم تلك الأرقام على أساس عدد الزاوايا (الحادة أو القائمة) التى يضمها كل رقم. فالرقم واحد يتضمن زاوية واحدة, ورقم اثنان يتضمن زاويتين, والرقم ثلاثة يتضمن ثلاث زوايا إلخ...

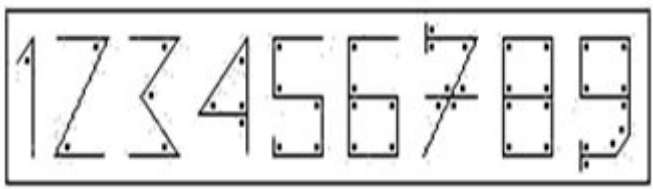

ثم دخل بعض التعديل على هذه الأشكال فأصبحت بالشكل المعروف. بالنسبة لما يكتبه الغرب أو يسمونه بالأرقام الأن , فهم أخذواها من العرب بدلاً من حساب الجمل الذي كان سائدًا في العصر القديم، ورأوا أن نظام الترقيم أفضل من حساب الجمل، وهي المستعملة في معظم البلاد العربية،وكانت سائدة في بلاد الأندلس، ومنها انتقلت إلى أوربا، وعُرفت بالأرقام العربية ، ويرجع الفضل إلى محمد بن موسى الخوارزمي في نقل هذه الأرقام في مؤلفاته في الحساب والتي تُرجمت إلى اللاتينية.

وقد سهّل استخدام النظام العددي إجراء العمليات الحسابية

بدلاً من استعمال حساب الجمل والنظام العددي الروماني المعقد، كما أن للصفر الذي ابتكره العرب ميزة كبرى في علم الحساب، وكان العرب يستخدمون لفظ "صفر" للدلالة على "لا شيء" منذ العصر الجاهلي، وفي القرن الثامن الميلادي استخدمه المسلمون في الحساب على هيئة حلقة، فقد كان الهنود يستعملون "سونيا" أو الفراغ للدلالة على الصفر، فنقلت هذه النقطة الهندية إلى العربية باسم "صفر"، واستعملها الأوربيون باسم cipher, chiffre, ثم zero. كما كان للعلماء المسلمين الفضل في اكتشاف طريقة الإحصاء العشري ووضع علامة الكسر العشري، الأمر الذي أدى إلى ثورة في علم الحساب.

وامتد فضل الحضارة الإسلامية على حضارة أوربا إلى علم الجبر الذي لا يزال محتفظًا باسمه العربي في معظم اللغات الأوربية Algebra بعد أن أخذه الأوربيون عن المسلمين.

واكتشف المسلمون أصول علم الجبر كما وضعها العالم الإغريقي ديوفانتوس الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، ومن المعروف أن الخليفة العباسي المأمون كلّف الخوارزمي بوضع كتاب في علم الجبر، وهو الكتاب الذي نقله إلى اللغة اللاتينية روبرت الشستري سنة ١١٤٥، وظل مستعملاً في المدارس والجامعات الأوربية حتى القرن السادس

عشر الميلادي، ومن العلماء المسلمين الذين كتبوا في علم الجبر أبو بكر محمد بن حسن الكرخي، وعمر بن إبراهيم الخيام.

وفي مجال الهندسة وعلم المثلثات ترجم المسلمون كتاب إقليدس في الهندسة، وترجم أديلارد الباثي هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظل هذا الكتاب يُدرّس في الجامعات الأوربية حتى القرن التاسع عشر.

وترجم الطوسي (ت ١٢٧٤م) كتاب "المعطيات" لإقليدس، وله كتاب في هندسة الأشكال الكروية، ومن المعروف أن المسلمين لم يقتصروا على معلومات الإغريق في الهندسة، وإنما طوروا وأضافوا الكثير، ومزجوا بين الهندسة والجبر، وكان لهم الفضل في وضع أسس الهندسة التحليلية، وفي وضع أسس علم التكامل والتفاضل.

كذلك عرفت أوربا أصول حساب المثلثات من المسلمين، فقد كان لهم السبق في وضعه في قالب علمي واضح، وفصلوا بينه وبين الفلك، ويرجع الفضل إلى أبي الوفاء البوزجاني (ت ٩٩٨م) الذي وضع دعائم علم حساب المثلثات، وترجم الأوربيون مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية، كما ترجموا مؤلفات أبي عبد الله البتاني (٨٥٠ - ٩٢٩م) في علم حساب المثلثات، وعرف باسم Albategnus، وكذلك ترجموا مؤلفات ثابت بن قرة والطوسي والخازن البصري والبيروني وغيرهم.

وأطلق المسلمون على الميكانيكا "علم الحيل"، ويُعتبر كتاب الحيل - تأليف أبناء موسى بن شاكر - من أهم كتب المسلمين في هذا العلم، واحتوى الكتاب على نحو مائة تركيب ميكانيكي ما بين آلات جر الأثقال بالقوة اليسيرة، وآلات الحركات، وصناعة الأواني العجيبة. حقيقة بدأ المسلمون دراسة الميكانيكا بترجمة مؤلفات الإغريق إلا أنهم طوروا وأضافوا إلى ما وجدوه لديهم، وورد في أحد المصادر الأوربية ذكر الساعة الدقاقة التي أرسلها الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى شارلمان، وهي ساعة مائية تدق كل ساعة بسقوط كراتها النحاسية على قرص معدني، وعرف المسلمون الساعات ذات الأثقال مثل ساعة المسجد الأموي في دمشق، كما استعملوا البندول في قياس الوقت.

ويقال إن العالم المسلم ابن يونس كان أول من اخترع البندول وعرف شيئًا عن قانونه، وهو القانون الذي وضعه جاليليو فيما بعد في صورته الرياضية، وكان السبق في هذا المجال للمسلمين.

الفلك (علم الهيئة):

اهتم علماء المسلمين بعلم الفلك، وربطوا بينه وبين العلوم الرياضية، وكان الفلك ضروريًّا لبعض الأمور الدينية، منها تعيين أوقات الصلاة حسب موقع البلد ومعرفة الموقع الجغرافي وحركة الشمس في

البروج وأحوال الشفق وهلال رمضان وتعيين سمت القبلة... وتفوقوا في هذا المجال، وخلّصوا هذا العلم من التنجيم والاعتماد على الغيب، وانتشرت المراصد العديدة في أرجاء البلاد الإسلامية، منها سمرقند ودمشق والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة، وكانت هذه المراصد زاخرة بأجهزة وآلات بالغة الدقة.

وازداد اهتمام المسلمين بعلم الفلك زمن الخلافة الأموية، وكان من أهم المهتمين بهذا العلم خالد بن يزيد بن معاوية، وخلال العصر الأموي تمت ترجمة أحد كتب الفلك الشهيرة عن اللغة اليونانية وهو كتاب "مفتاح النجوم" لهرمس الحكيم، كما اهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بعلم الفلك، وتُرجمت في عهده مجموعة من الكتب في هذا العلم، كما أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بترجمة كتاب "السند هند كبير" الذي يبحث في حركات النجوم ومطالع البروج والكسوف وغيرها، وسار خلفاء بني العباس على نفس المنوال، فشجعوا الاشتغال بهذا العلم، ونتيجة لتلاحم المؤثرات اليونانية والفارسية مع العربية طوّر المسلمون هذا العلم.

وشغف علماء كثيرون بالفلك، وألّفوا فيه، منهم ثابت بن قرة، والبلخي، وحنين بن إسحق، والبتاني، وسهل بن بشار، وقسطا البعلبكي،

والكندي، والبوزجاني، وابن يونس، والبيروني، والخازن، والطوسي، والفرغاني، والفزاري، وغيرهم.

ولابن الهيثم والبيروني والبوزجاني والبتاني والفرغاني آراء علمية قيمة في تقدير محيط الأرض، وقالوا باستدارة الأرض، وأقاموا الكثير من المراصد، وحسبوا طول السنة الشمسية، وحققوا مواقع كثير من النجوم، ورصدوا الاعتدالين: الربيعي والخريفي، وكتبوا عن البقع الشمسية وغير ذلك، فقد عرف العلماء المسلمون الكثير عن الأرض وكرويتها، فذكر الشريف الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق" أن الأرض مدورة كتدوير الكرة، وقد بقيت آراء المسلمين وقياساتهم سائدة قبل عصر النهضة الفلكية الكبرى التي قادها كبلر وجاليليو وكوبرنيقوس الذين قالوا -نقلاً عن العلماء المسلمين - بدوران الأرض حول محورها، وأنها والكواكب تدور حول الشمس، فقد رأى علماء المسلمين في علم الفلك علمًا رياضيًّا مبنيًّا على الرصد والحساب، وكان أساس تقدمه ما أقاموه من مراصد، وما ابتكروه من أجهزة وآلات وأدوات، وما قدموه من أزياج وجداول فلكية.

وقد ترجم ثابت بن قرة كتاب المجسطي في الفلك، وكذلك اختصره بقصد تعليمه وتسهيل قراءته، ويعتبر البوزجاني من أشهر علماء الفلك،

وله كتاب "الزيج الشامل"، كما كان المجريطي من أشهر علماء الفلك في الأندلس، وله رسالة في الأسطرلاب وشروح على كتاب بطليموس تُرجمت جميعًا إلى اللاتينية، وبنى الفاطميون لابن يونس مرصدًا على جبل المقطم على تلٍّ مُشرف على مدينة القاهرة، وجهزوه بكل ما يلزم من آلات وأدوات، ووضع ابن يونس "الزيج الحاكم"، ورصد كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٨م، ووصف في زيجه الحاكمي الطريقة التي اتبعها الفلكيون المسلمون في عصر الخليفة العباسي المأمون في قياس محيط الأرض، وسبقت الإشارة إلى أن ابن يونس سبق جاليليو إلى اختراع البندول بعدة قرون، واستعمله في حساب الفترات الزمنية في أثناء الرصد.

ويأتي نصر الدين الطوسي (ت ١٢٧٤م) في قائمة شوامخ علماء الفلك المسلمين الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية، وكان له مرصد كبير في مراغة أقامه له هولاكو سنة ١٢٥٩م، وكان مشرفًا عليه، وفي هذا المرصد تم إنجاز تقاويم فلكية عُرفت باسم "الزيج الإيلخاني"؛ استخدمت في بلدان كثيرة، وبخاصة في آسيا والصين.

ومن أشهر علماء الفلك الخازن الذي اشتهر بزيجه الفلكي، ومن أشهر مؤلفاته "ميزان الحكمة" الذي تُرجم إلى اللغات الأجنبية،

والبتاني الذي اشتهر بالزيج الصابي الذي تُرجم إلى اللاتينية، وللفرغاني كتاب "أصول الفلك" الذي كان كبير الأثر في جامعة بولونيا في إيطاليا في عصر النهضة، واستفاد كوبرنيقوس من كتاب الفرغاني "جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية" الذي طُبعت ترجمته اللاتينية سنة ١٤٩٣م، وكان من المراجع الهامة التي اعتمد عليها كوبرنيقوس لتقويض نظريات بطليموس.

ويتضح مما سبق أن المسلمين نظروا إلى علم الفلك على أنه علم رياضي مبني على الرصد والحساب، وكان أساس تقدم هذا العلم ما أقاموه من مراصد، وما ابتكروه من أجهزة وآلات وأدوات، وما وضعوه من جداول فلكية.

ومما يؤكد فضل العلماء المسلمين في تطوير هذا العلم، وبالتالي على النهضة الأوربية، أن علم الفلك ما زال حتى اليوم مليئًا بالاصطلاحات العربية وأسماء الأبراج والكواكب والنجوم التي أخذها الأوربيون من العربية كما هي دون تحريف:

الطرف	Altaref	**كرسي الجوزاء**	Cursa
الكف	Caph	**الأرنب**	Arneb
العرقوب	Arkab	**السمت**	Azimuth

أدحى النعام	Azha	البطين	Botein
زباني العقرب	Zuben Hakrabi	الوزن	Wezn
صدر الدجاجة	Sadr	سعد السعود	Sadalsud
الزورق	Zaurek	قرن الثور	Taurri
الراعي	Errai		

الطبيعة (الفيزياء):

تفوق العلماء المسلمون تفوقًا رائعًا في علم الفيزياء، وبخاصة في مجالات العدسات والبصريات والصوت والمغناطيسية والجاذبية... فقد عالج ابن سينا موضوع سرعة الصوت وسرعة الضوء في كتابه "الشفاء"، وقال إن البصر يستبق السمع، فإذا اتفق أن قرع إنسان من بُعْدٍ جسمًا على جسم، رأيت القرع قبل أن تسمع الصوت، وشرح أسباب ذلك شرحًا علميًّا واضحًا.

ويعتبر الحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٢٠م) في مقدمة علماء الضوء في جميع العصور، وسمى المسلمون الضوء بالبصريات أو علم المناظر، وعرفت أوربا العصور الوسطى ابن الهيثم باسم "الهازن"، وهو تحريف لكلمة "الحسن"، وقد ألّف في علم الطبيعة نحو أربعة وعشرين كتابًا، وأخذ عنه روجر بيكون وكيبلر، وبرهن الأستاذ مصطفى نظيف -

الذي توفر على دراسة ابن الهيثم - بأنه سبق روجر بيكون، ووضعه في مقدمة علماء الطبيعة النظرية ما وضعه من نظريات في الإبصار وقوس قزح وانعكاس الضوء وانعطافه (انكساره)... كما وضع ابن الهيثم في المقدمة بين علماء الطبيعة التجريبية، بما أجرى من تجارب في كيفية امتداد الأضواء الذاتية التي تنبعث من الأجسام المضيئة بذاتها كضوء الشمس وضوء النهار وغيرها.

واشتهر البيروني في مجال علم الطبيعة، وله شروح في ضغط السوائل وتوازنها، وصعود مياه الفورات والعيون إلى أعلى، وعيّن البيروني الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعًا من أنواع الأحجار الكريمة، ووضع قاعدة الكثافة النوعية للجسم، وتناسبها مع حجم الماء الذي يزيغه، وتحدث البيروني عن نظرية الأواني المستطرقة في شرحه لأسباب خروج الماء من العين الطبيعية والآبار الارتوازية.

أما كتاب "ميزان الحكمة" للخازن البصري (٩٦٥ - ١٠٣٨م) فهو من المراجع الأساسية في علم الطبيعة، وقد تُرجمت كتب الخازن البصري إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغة الإيطالية، ومن المعروف أن روبرت جرستست (١١٧٥ - ١٢٥٣م) -الذي يعتبر من أشهر علماء الطبيعة في غرب أوربا - استقى معلوماته من ترجمة باللغة اللاتينية

لكتب الخازن البصري، وأخذ عن الخازن البصري أيضًا كثير من علماء أوربا منهم بول وتلو (ت١٢٧٠م) الذي أخذ عنه روجر بيكون.

وعرف المسلمون الروافع، واستخدموا أنواعًا عديدة منها، شرح بعضها الخوارزمي في كتابه "مفاتيح العلوم"، ولا شك أن أفكار علماء المسلمين في علم الطبيعة (الفيزياء) ساعدت على ظهور العديد من مشاهير العلماء الأوربيين، ولا يوجد شك في أن نيوتن -على سبيل المثال - استفاد من كتابات ابن سينا والبيروني في كشف قانون الجاذبية الأرضية، واستعان كيبلر بكتابات الحسن بن الهيثم في البصريات، وكان أثر علماء المسلمين في علم الفيزياء واضحًا؛ لم ينكره علماء أوربا، ويتضح ذلك مما ذكره كثير من المستشرقين.

الكيمياء:

ظل علم الكيمياء عند العرب مرتبطًا ببعض الأوهام، وأن المعادن كلها تتكون من عنصر واحد وإن اختلفت في تراكيبها، وساقهم هذا الاعتقاد إلى محاولة تحليل المعادن الرخيصة كالحديد والرصاص إلى عناصرها الأولى، وإعادة تركيبها بنسب جديدة لتحويلها إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة، وحول السعي نحو الوصول إلى هذه الفرضية اكتشف العلماء المسلمون حقائق علمية بالغة الأهمية، فقد حللوا

كثيرًا من المواد تحليلاً كيميائيًّا، وميزوا بين القلويات والأحماض، وشرحوا كثيرًا من التفاعلات الكيميائية وتأثير المواد عليها.

ومن أشهر علماء المسلمين في الكيمياء جابر بن حيان الكوفي الذي كتب مصنفات أشهرها كتاب "الاستتمام"، ووصف جابر المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل، والتي استحضرها مثل حامض النيتريك (ماء الفضة)، وحامض الكبريتيك (زيت الزاج)، وماء الذهب، والبوتاس، وروح النشادر، ونترات الفضة، واستخدام ثاني أكسيد المنجنيز في صنع الزجاج، وبحث جابر بن حيان في السموم، فكتب كتابًا عنوانه "السموم ورفع مضارها"؛ قسم فيه السموم إلى نباتية وحيوانية ومعدنية أو حجرية، واعتمد في بحوثه الكيميائية على التجربة والمشاهدة، وعرف جابر كثيرًا من العمليات الكيميائية كالتبخير والتقطير والترشيح والتكليس والإذابة والتبلور والتصعيد، وحضّر كثيرًا من المواد الكيميائية، وعرف خواصها.

ومن الثابت أن كتب جابر بن حيان في الكيمياء وغيرها قد تُرجمت إلى اللاتينية، وظلت المراجع المعتمدة في الكيمياء لقرون عديدة، وكانت مؤلفاته موضع دراسة علماء الغرب، منهم كوب، وهولميارد، وبرثوليه، وكراوس، وسارتون.

أما أبو بكر الرازي (ت٩٢٥م) فقد وصف عمليات تحضير حامض الكبريتيك (زيت الزاج) والكحول، ومن كتاباته أخذ الأوربيون فكرة تقسيم المواد الكيميائية إلى معدنية ونباتية وحيوانية ومواد مشتقة، ومن أشهر كتب الرازي في الكيمياء كتاب "سر الأسرار" الذي اعتمد فيه على التجربة والمشاهدة، ووصف فيه الأجهزة والأدوات التي استخدمها في تجاربه، ونسب الباحثون إلى الرازي أكثر من عشرين كتابًا في الكيمياء، ولكن أهمها كتاب "سر الأسرار" الذي كان له تأثير كبير في تطور علم الكيمياء في الشرق والغرب في العصور الوسطى.

وللمجريطي (من علماء القرن العاشر الميلادي) كتاب في الكيمياء، تُرجم إلى اللغة اللاتينية، ويعتبر من أهم المصادر في تاريخ هذا العلم. ومن العلماء المسلمين الذين ألفوا في الكيمياء داود الأنطاكي، وابن البيطار، والبغدادي، وابن ميمون، والزهراوي.

ويرجع الفضل إلى علماء المسلمين في التوصل إلى ما يُعرف باسم الكيمياء الصناعية، أي استخدام المواد والعمليات الكيميائية في خدمة الصناعة: في صناعة الأقمشة، ودبغ الجلود، وسقي المعادن وتركيبها وصقلها، وتكفيت معدن بآخر، وتجهيز العطور وتركيبها، واستخدام المواد الكيميائية العازلة والمضادة للاحتراق.

والخلاصة أن أثر العلماء المسلمين على الأوربيين في الكيمياء كبير لدرجة أن أشاد المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" بفضلهم، بقوله: لولا ما وصل إليه العرب من نتائج واكتشافات في علم الكيمياء لما استطاع لافوازيه أبو الكيمياء الحديثة أن ينتهي إلى اكتشافاته، وإلى جانب ذلك فإن أثر العرب في علم الكيمياء يبدو واضحًا من كثرة الكلمات العربية التي وردت في اللغات الأوربية في ذلك العلم، فالكيمياء أصبحت Alchimie بالفرنسية، وبالإنجليزية Chemistry، والكحول Alcohol بالإنجليزية، وبالفرنسية Alcahol، والقلويات أصبحت Alkali، والأمبيق Alambic، إلخ.

الطب والصيدلة (الأقربازين):

آمن المسلمون بأهمية الطب، وعنوا به عناية كبرى، وابتعدوا عن أعمال الكهانة والتنجيم والتعاويذ والتمائم وغيرها من الاعتقادات الباطلة مما كان معروفًا عند العرب في الجاهلية، واتجهوا نحو تراث اليونانيين في مجال الطب؛ يترجمونه إلى اللغة العربية، ليفيدوا منه. وبنفس روح التسامح واتساع الأفق أشاد علماء المسلمين بجالينوس وأبقراط، ورأوا أنه لا يوجد ما يحول دون أن يتعلم المسلم أصول مهنة الطب على يد طبيب غير مسلم، تركوا الباب مفتوحًا أمام مئات

الأطباء النصارى واليهود لمزاولة مهنة الطب ومداواة مرضى المسلمين وغير المسلمين، وهذا دليل على عظمة الحضارة الإسلامية، وروي أن رسول الله - ﷺ - أمر باستدعاء الحارث بن كلدة، ولم يكن مسلمًا، لمداواة سعد بن أبي وقاص عندما مرض.

وعندما أصيب الخليفة العباسي المنصور سنة ٧٦٥م بِعِلّة في معدته، استدعى جورجيوس بن جبرائيل بن بختيشوع لعلاجه، وهو طبيب نسطوري، وظل هذا الطبيب النصراني في قصر الخليفة مداومًا على علاجه، واشتهر من أسرته بعد ذلك سبعة أجيال؛ مارسوا الطب في قصر الخلافة العباسية في بغداد على مدى قرن ونصف من الزمان.

كذلك اشتهر عدد كبير من أطباء اليهود في الدولة الإسلامية، منهم موسى بن ميمون الذي تلقى العلم على أيدي العلماء المسلمين في قرطبة، وعندما قدم إلى مصر صار مقربًا من السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقام بعلاجه، ومنهم أيضًا الطبيب السيد أبو البيان بن المدور الذي باشر علاج السلطان صلاح الدين أيضًا، وأصبحت له مكانة مرموقة في عصره.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء المسلمين الذين أفادوا من كتب اليونانيين في مجال الطب وما حققوه من نتائج، لم يلبثوا -كعادتهم دائمًا - أن فاقوا أساتذتهم، فنقدوا ما ورد في كتب أطباء اليونان

من معلومات، وصححوا ما ورد فيها من أخطاء، وأضافوا الكثير إلى مهنة الطب علمًا وعملاً، فقد كان منهج علماء المسلمين يقوم على أساس التجربة والمشاهدة، وألحقوا دراسة الطب بالبيمارستانات (المستشفيات) حتى يتمكن طالب المعلم والمتعلم من تشخيص الحالات المرضية ومتابعتها، والوقوف على تطور المرض وأعراضه، وإجراء الفحوص اللازمة.

وقد بلغ عدد المتخصصين من أطباء العرب وغيرهم درجة من الكثرة جعلت ابن أبي أصيبعة (المتوفَّى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م) يؤلف كتابًا عنوانه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)؛ احتوى على تراجم المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين كما ذكر في مقدمة كتابه، ومما يدل على كثرة عدد الأطباء المسلمين في عواصم الدولة الإسلامية وتقدم الدراسات الطبية أن الخليفة العباسي المقتدر بالله سمع في سنة ٩٣١م أن رجلاً من عامة الناس لحقه ضرر من الدواء، فطلب الخليفة من سنان بن قرة امتحان الأطباء في مدينة بغداد، وإجازة من ينجح منهم، وأن يطرد من هذه الصناعة من اتضح قلة خبرته ودرايته بأمور الطب والعلاج، فتقدم إلى هذا الامتحان مئات الأطباء؛ أجيز منهم ثمانمائة وستون طبيبًا، ولم يسمح للباقين بمزاولة مهنة الطب. وجدير بالإشارة إلى أن التفوق في مجال

الطب لم يقتصر على الرجال دون النساء، ومن مشاهير الطبيبات أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، وكانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة وبخاصة فيما يتعلق بمداواة النساء.

واشتهر من أطباء المسلمين كثيرون ممن وضعوا موسوعات ضخمة في شتى فروع الطب؛ ترجمها الأوربيون منذ وقت مبكر إلى اللغة اللاتينية / وأفادوا منها، وبنوا على أساسها معلوماتهم عن الطب الحديث، ومن الثابت أن بعض هذه الموسوعات الطبية ظل يُدرّس في الجامعات الأوربية حتى أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، فمعلومات الأوربيين في الطب كادت تنعدم في العصور الوسطى بسبب الجهل وتزمت رجال الكنيسة، إذ اعتبروا المرض نوعًا من العقاب الإلهي؛ لا يصح للإنسان أن يُعالَج أو يبرأ منه، فإذا مرض أحدهم هرع إلى أقرب دير أو كنيسة، حتى يختفي على مقربة منها، منتظرًا حدوث معجزة تشفيه، أو أن يموت، وكان الأوربيون يعالجون مرضى الأمراض العقلية والنفسية بالرب اعتقادًا منهم بدخول الأرواح الشريرة والشياطين في أجسادهم.

وقد روى مؤرخو حروب العصور الوسطى أكثر من قصة توضح الفارق بين مستوى الطب عند المسلمين وما كان عليه الأوربيون من جهل في مجال الطب، فمن ذلك قصة الملك عموري الأول ملك بيت

المقدس، حين مرض بالدوسنطاريا، واعتراه من ذلك ضعف شديد، ورفض طبيبه العربي أن يفصده أو يعطيه مسهلاً، لما ثبت عنده من تعاليم الرازي أن ضعف القوة أردأ العلامات، أما طبيبه الفرنجي ففعل ذلك، فمات الملك من غده في يوليو سنة ١١٤٧م.

وروى أسامة بن منقذ في كتابه "الاعتبار" أن أحد أمراء أوربا طلب من عمه أن يبعث إليه بطبيب عربي.

وسبقت الإشارة إلى أن المسلمين استفادوا من كتب العلماء اليونانيين في الطب، مثل كتب جالينوس وأبقراط وغيرهما، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، وإنما أضافوا إليها وأشاروا إلى ما ورد بها من أخطاء، وكتبوا أبوابًا جديدة في الطب معتمدة على مشاهدتهم وتجاربهم الخاصة.

ويُعتبر الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥م) من أشهر الأطباء المسلمين في هذا المجال، لدرجة أنْ لقَّبَه الأوربيون بجالينوس العرب، واعتمدوا على كتبهن وبخاصة دراسة الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري، وأشار الرازي في كتاب "الفصول" إلى أخطاء وقع فيها أبقراط وجالينوس، فذكر أن أبقراط أخطأ في قوله: "إن ماء الاستسقاء يصل إلى الرئة فيزيد السعال"، وأخطأ أيضًا في قوله: "إن ذبول الجسم يزيد رواسب البول"،

كما أنه اتفق مع جالينوس في قوله عن الحميات إن بعضها يكون عن ورم، وبعضها عن غير ورم، وعلق على ذلك بقوله: "هذا تحقيق رأينا في أننا قسمنا الحميات إلى قسمين، فقلنا: الحميات إما مرض وإما عرض"، وهو التقسيم الذي يطابق الطب الحديث، وهو أوضح وأصوب من قول جالينوس. وذكر ابن النديم في كتابه "الفهرست" أسماء أكثر من مائة كتاب، ونحو ثلاثين بحثًا ورسالة للرازي، وكلها تعالج موضوعات في الطب والكيمياء والصيدلة؛ مكّنه من تطبيق معارفه في هذين العلمين على دراسة الطب.

ويعتبر الرازي أعظم أطباء الطب الإكلينيكي (السريري) في العصور الوسطى، ومن أشهر كتبه كتاب "الحاوي"، وهو من أهم كتبه في صناعة الطب، ويقع هذا الكتاب في ٢٤ جزءًا؛ جمع فيه كل ما وجده متفرقًا في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية، فتناول موضوعات التشريح والأدوية والجراحة والأمراض... وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية في عام ١٢٧٩م ترجمة فرج بن سالم اليهودي بأمر من شارل أنجو ملك نابلي وصقلية، وبعد اختراع الطباعة تم طبعه أكثر من مرة، وانتشر استعماله في الجامعات الأوربية حتى القرن التاسع عشر.

وللرازي كتاب مشهور في الطب يُسمَّى "المنصوري"، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وسُمِّيَ Liber Almansoris، ونُشر لأول مرة في ميلان في أواخر القرن الخامس عشر، وفيه جمع الرازي أفكاره حول صناعة الطب في عشر مقالات، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينية أيضًا، وله عدة مؤلفات أخرى منها كتاب في علل المفاصل والنقرس وعرق النساء، وكتاب "الجامع"، وكتاب "المدخل"، وكتاب "الكافي"، وكتاب "الفاخر"، وكتاب "إلى من لا يحضره طبيب"، وكتاب "الفالج"... وحسبُ الرازي مكانةً أن جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية أطلقت اسمه على أكبر قاعاتها، تخليدًا لذكراه، واعترافًا بفضله في الطب والعلوم.

وعاصر الرازي في القرن العاشر الميلادي علي بن العباسي (ت ١٠١٠م) صاحب كتاب "الملكي" الذي اعتمد في تأليفه على مشاهداته الميدانية في البيمارستانات (المستشفيات)، وصحح في هذا الكتاب كثيرًا من الأخطاء التي وقع فيها الأطباء اليونانيون، ومنهم أبقراط وجالينوس وبولس الأيجيني وغيرهم.

أما ابن سينا المتوفَّى سنة ١٠٣٧م، فيُعتبر أشهر علماء المسلمين، ولقَّبَه المعاصرون بالشيخ الرئيس، كما لُقِّب بالمعلم الثاني تشبيهًا له

بأرسطو "المعلم الأول"، وله العديد من المؤلفات في الفلسفة والطب والهندسة والفلك والموسيقى وغيرها، ويعتبر كتابه "القانون" أشهر كتبه في الطب، وهو دائرة معارف طبية ضخمة؛ تناولت الأمراض المختلفة وأسبابها وأعراضها وعلاجها. وفي هذه الموسوعة ما يدل على أن أطباء المسلمين عرفوا السل الرئوي، وبه أول وصف لداء الفيلاريا "مرض الفيل" وانتشاره في الجسم، وأول وصف للجمرة الخبيثة، وفي مجال التشريح لم يترك ابن سينا في كتاب "القانون" عضوًا من أعضاء الجسم، حتى تشريح الأسنان وعظام الفكين، وقد طُبع الكتاب في روما سنة ١٥٩٣م، وتُرجم إلى اللغة اللاتينية، وطُبع أكثر من مرة، وأصبح المرجع الرئيسي في الجامعات الأوربية طيلة العصور الوسطى في تدريس الطب.

واشتهر ابن سينا بالعلاج النفسي وتفسير بعض الأمراض العصبية والنفسية التي تصيب الشباب وبخاصة في سن المراهقة، وكان ابن سينا أول من استخدم التخدير لإجراء العمليات الجراحية، وأطلقوا على المخدر اسم "المرقد"، (وهو الشيء الذي يجعل الإنسان يرقد وينام، ولا يحس بشيء من آلام الجراحة)، واستخرجوه من نبات الشيلم والخشخاش، كما اشتهر ابن سينا ببراعته وإتقانه في إجراء

العمليات الجراحية وتسكين الألم، واستخدام الأدوات الطبية، ومن المعروف أن الأطباء المسلمين استخدموا الخيوط المأخوذة من أمعاء القطط وبعض الحيوانات الأخرى في خياطة الجروح.

ومن أشهر الجرائحيين المسلمين أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوي المتوفَّى سنة ١٠٣٦م، صاحب كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وهو الكتاب الذي اعتمد عليه الغرب الأوربي لعدة قرون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية، وألف الزهراوي كتابًا في وصف الآلات المستعملة في العمليات الجراحية وطرق استخدامها، وباشر بعض العمليات الجراحية في طب النساء، وبخاصة ما يتعلق بالتوليد، واستخدام بعض الآلات الجراحية التي وصفها ورسمها. وقد نصح الزهراوي باستخدام ممرضات من النساء في حالة إجراء عملية جراحية لامرأة، لأن ذلك أدعى إلى الطمأنينة والرقة. ومن المعروف أيضًا أن الاشتغال بالطب لم يقتصر عند المسلمين على الرجال، بل اشتغلت به بعض النساء، وبخاصة فيما يتعلق بأمراض النساء والتوليد.

وفي مجال طب العيون استفاد الأوربيون في العصور الوسطى من جهود الكحّالين المسلمين (أطباء العيون). ومن أشهر هذه الطبقة من الأطباء أبو القاسم عمار بن علي الموصلي، الذي عاش في مصر

في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠م)، وأهدى إليه كتابه في أمراض العيون، وعرفه الأوربيون في العصور الوسطى باسم Canamusli، ومن أهم مؤلفاته كتاب "المنتخب في علاج أمراض العيون"، وله دراسة هامة في عمليات ماء العين (الكاتاراكت Cataract)، وكان أبو القاسم عمار معاصرًا للطبيب علي بن عيسى صاحب كتاب "تذكرة الكحالين"، وظل هذا الكتاب يُدرّس في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي، واستفاد الأوربيون في العصور الوسطى من كتابات أطباء العيون المسلمين وبخاصة حنين بن إسحاق صاحب كتاب "عشر مقالات في العين" وصلاح بن يوسف الكحال وغيرهما.

ومن المعروف أن الأوربيين في العصور الوسطى استفادوا من كتابات العلماء المسلمين في التشريح ووظائف الأعضاء، ومن ذلك -على سبيل المثال - ما فعله ابن النفيس في شرح الدورة الدموية الصغرى، وما ذكره عن تشريح الرئة وتشريح القلب، كما استفادوا من تراث الطبائعيين، وهم أطباء الأمراض الباطنية، والمجبّرين، وهم أطباء العظام.

وتجدر الإشارة إلى أن أطباء العظام المسلمين تميزوا عن غيرهم

لأنهم بنوا معارفهم على أساس المشاهدة، والدليل على ذلك أن عبد اللطيف البغدادي –من رحالة وأطباء القرن الثالث عشر الميلادي – كان يعاين عظام البشر في إحدى قرافات مصر، فذكر: "فشاهدنا من العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوصافها ما أفادنا علمًا لا نستفيده من الكتب".

وكان من الطبيعي أن يُعنى الأطباء المسلمون بالعقاقير، فاستخدموا العقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية، وحددوا خواص كل منها، وتأثير كل عنصر فيها، وتوصلوا إلى عقاقير جديدة عن طريق التركيب أخذت طريقها على أوربا. وكانت العقاقير العربية من أهم السلع للتجارة الإيطالية مع مصر والشام في العصور الوسطى. وكان العشابون يجوبون البلاد؛ يدرسون خصائص نباتاتها التي استخدموها في العقاقير. ومن تراث المسلمين في ميدان الصيدلة (الأقربازين) الذي استفاد منه الأوربيون في العصور الوسطى كتاب "حقائق الأدوية" لأبي منصور موفق بن علي الهروي في القرن العاشر الميلادي، ووصف فيه نحوًا من ستمائة دواء، ومؤلفات ماسويه المارديني المتوفَّى سنة ١٠١٥م، التي تُرجمت إلى اللغة اللاتينية، وانتشرت في أوربا انتشارًا سريعًا، وكتاب "منافع الأغذية ودفع مضارها" للرازي، وكتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" لابن البيطار (١١٩٧

- ١٢٤٨م) الذي ظل يُدرّس في أوربا لبضعة قرون، وكانت آخر طبعاته في منتصف القرن الثامن عشر.

هكذا كان أثر الحضارة الإسلامية في النهضة الأوربية واضحًا جليًّا في شتى المجالات، واستحقت الحضارة العربية الإسلامية صفة العالمية، وقد قدمت الصفحات السابقة الشواهد الواضحة على ما كان لعلماء المسلمين من سبق وأصالة، وأن مؤلفاتهم ظلت مراجع معتمدة لدى أهل الصناعة والعلم في أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وتُرجمت إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوربية، وطُبعت مرات عديدة.

ولعل هذه الصفحات ألقت بعض الأضواء على أثر الحضارة الإسلامية في النهضة الأوربية، وفسرت حركة التاريخ الحضاري، وعلاقات الحضارات بعضها للعض أخذًا وعطاءً، تلك العلاقات التي قامت على الحوار والتلاقي وليس بالمجابهة أو الصراع أو الصدام، كما برهنت على أن الحضارة العربية الإسلامية ساهمت بجانب كبير في تاريخ الحضارة الإنسانية، وتركت بصماتها الواضحة على تاريخ البشرية.

ومن حق الثقافة العربية الإسلامية علينا أن نذكر لها أنها رسخت لمفهوم العلم "كثقافة"، ووضح ذلك جليًّا في فترات ازدهار الحضارة الإسلامية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وليس ذلك

القول بكاءً على الأطلال، فإن بذور التقدم الكامنة في ثقافتنا تُعد أكبر رصيد لتاريخ المستقبل الذي نتمناه لأمتنا، بل ونتمنى أن تستفيد منه البشرية جمعاء، كما حدث في زمن ازدهار الحضارة الإسلامية لأنها كانت تنشد مفهوم "العلم النافع" كما يعرفه الإسلام.

ويمكن العودة إلى عدد ضخم من المراجع التي تتناول هذا الأمر، منها – على سبيل المثال – «من أعلام الطب العربي» لأبي الفتوح التوانسي، و« دراسات في الحضارة الإسلامية» لأحمد إبراهيم الشريف، و« الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى» لأحمد عبد الرازق أحمد، و«التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة» لأحمد فؤاد باشا، و« الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» لآدم ميتز، و« تاريخ حكماء المسلمين» للبيهقي، و« الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، دراسة مقارنة» لتوفيق الطويل، و« أثر العرب في الحضارة الأوربية» لجلال مظهر، و« أثر الشرق في الغرب» لجورج يعقوب، و« حضارة الإسلام» لجوستاف جروينباوم، و« حضارة العرب» لجوستاف لوبون، و« تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها على أوربا» لحامد زيان غانم، و« الخطاب الأخلاقي في الحضارة الإسلامية» لحامد طاهر، و« مراكز الحضارة الإسلامية» لحامد غنيم

أبو سعيد، و« دراسات في تاريخ الدول البيزنطية» لحسنين محمد ربيع، و« المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية»، و« حضارة الإسلام» لسعيد عبد الفتاح عاشور، و"أثر العرب في الحضارة الأوربية" لعباس محمود العقاد، و"التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية" لعبد الرحمن بدوي، و"الحضارة الإسلامية" لعطية القوصي، و"العلوم عند العرب"، و"تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك" لقدري طوقان و"شمس العرب تسطع على الغرب" لزيفريد هونكه، وغيرها من المراجع العملية التي تتناول هذا الموضوع.

ولكن بالنظر إلى وضع الأمة الإسلامية الآن، فإننا نجد أن الاهتمام بالعلم وبالأبحاث العلمية أصبح آخر همهم مقارنةً بالعصر الذهبي الذي شهدته الحضارة الإسلامية، وخصوصًا عصر الخليفة هارون الرشيد الذي شُوِّهَ تاريخه من قِبَلِ أعدائه وقالوا فيه ما قالوا، إلا أنه كان عظيمًا في حقيقته، ومن عظمته أنه كان يكافئ الباحثين والمترجمين للعلوم باللغات الأجنبية إلى اللغة العربية بأوزان الكتب ذهبًا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الاهتمام بالعلم والحضارة، ومدى ما بلغته هذه الحضارة من تقدم ليس من فراغ.

وقد أنتجت هذه الحركة العلمية المزدهرة في عصور الدولة

الإسلامية حركة من التسامح وقبول الآخر والتطور والتقدم في المجالات كافة، على عكس ما نجده الآن من مفاهيم خاطئة، وصلت إلى درجة استعمال آيات القرآن الكريم في تكفير الناس وإباحة دمائهم بما فيهم المسلمين أنفسهم!

إلى جانب تدهور العملية التعلمية وروكدها ، والاستهانة بالدين الذي تم التعامل معه في المدارس باعتباره مادة إضافية لا تُضاف على المجموع، ولا يرسب فيها أحد، حتى رسبت الأمة بكاملها في اختبار الأمم!

الإسلام بين المفهوم والتطبيق

إن القرآن يبني الأمة ويهدف إلى صلاح أخلاقها، وإلى تحسين المجتمع، وليس أدل على هذا من أن الآيات التي تدعو إلى حسن الخلق والمعاملات في القرآن أكثر من آيات العبادات والفرائض، والأخلاق تعتبر من أشرف العلوم وأعلاها قدرًا، لذلك يسميها بعض العلماء تاج العلوم.

إن فلسفة الدين الإسلامي جعلت العلم يخدم الأخلاق، وهذا بما كشفه العلم من نافع وضار، وخير وشر... وكيف لا والأخلاق الإسلامية هي نتيجة لتطبيق العلم، وبقدر ما يتحلى الإنسان بالأخلاق الإسلامية الصحيحة مع نفسه ومع مجتمعه فإنه ينعم بالصحة النفسية والجسدية؟ فالأخلاق الإسلامية تنشر الخير والأمن والأمان في ربوع العالم.

لكن إذا كنا نحن في العالم الإسلامي قد أهملنا في الجوانب الأخلاقية كالعدالة والشورى والتكافؤ الاجتماعي والتلاحم والحب... فإننا نتحمل بالضرورة مسؤولية رؤية العالم الغربي واعتقادهم أن

سبب تخلفنا عن الركب الحضاري هو تمسكنا بالدين الإسلامي رغم عدم صحة هذا الاعتقاد!

إن المفارقة بيننا وبين المجتمعات الغربية أننا لم ندرك المعنى الحقيقي للحرية والديمقراطية في حين أن المجتمع الأوربي مبني على أسس حقوق الإنسان بكل ما تحتويه هذه الكلمة من أبعاد، كما أننا في عالمنا العربي نجد أن كل نخبة أو جماعة تريد أن تنفرد بالحكم وحدها وتقصي الآخر وتحاول تكفيره أو إبعاده، وهذا ما ظهر بوضوح بعد الثورات العربية التي اختلف الكثيرون حول نتائجها باعتبار ما أدت إليه من تراجع على مستويات عديدة، والحقيقة أن الأوطان والدول لا يملكها أشخاص، ولا يصح لأي نخبة أو جماعة الاستيلاء عليها، وأن الوطن ملك للجميع، ولا يصح لأحد أن يساوم عليه! الوطن في الحقيقة يملكنا ولا نملكه، والوطن أكبر من الجميع، ويضم الكل بمختلف اتجهاتهم .

ما ينقصنا كأمة في هذه اللحظة التاريخية أن يكون لنا مشروع نهضة، وأن يتشاور حوله كل علماء الدين والعلماء في المجالات الأخرى بصفة عامة من كل الاتجاهات، وأن يضم هذا المشروع كل الدول الإسلامية، بهدف الاتفاق على تأسيس مفهوم واحد وشامل للتقدمية الإسلامية التي رسخها الإسلام منذ ظهوره, في مبادئه الشمولية والكلية:

العدل والتسامح والفكر المستنير، وهذا هو الدرع الواقي ضد التطرف الديني والمفهوم السطحي للإسلام، واستعمال الدين كذريعة لخلق الفتن وزرع الموت والدمار والحروب والتخلف على عكس ما جاء به القرآن الكريم في مخاطبة الله للنبي محمد - ﷺ - بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (١).

إن الأديان السماوية كلها تخاطب البشرية، وتسعى لنشر الرحمة بين الناس. وأنا أرجح مفهوم التقدمية في الفكر الإسلامي، بحيث يكون السبيل الوحيد للخروج من مأزق التطرف والتخلف والفهم السطحي للإسلام؛ يجب - من وجهة نظري - على المثقفين وعلماء الأزهر الشريف من ذوي الفكر المتنور والوسطي أن يساندوا طرح مفهوم جديد، وليكن اسمه على سبيل المثال «التقدمية الإسلامية» أو غير ذلك، على أن يكون هدفه ترسيخ وتصدير معاني السلم وقبول الآخر والسعي لجعل العالم الإسلامي عالمًا يسود فيه السلم والرخاء والعدل الذي هو أساس الملك والذي تنص عليه الآيات القرآنية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾(٢).

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ٥٨ من سورة النساء

والإسلام موجود ومنتشر بالفعل، كعقيدة في بلادنا العربية، وكمعاملات ومبادئ في الغرب، وقد كنت شاهدة على ذلك أثناء وجودي في أوروبا، حيث رأيت أنهم يطبقون كل معاني الإسلام من عدالة اجتماعية ومساواة بين أفراد المجتمع، حيث يدفع الأوربي مبلغًا يُستقطع من دخله سنويًّا يُسمى الضرائب، ومن ذلك المال تنشأ مؤسسة اجتماعية تساعد غير القادرين لمختلف الأسباب على العمل والكسب، فيكون لهم مرتب شهري يساعدهم على العيش الكريم لتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص. في الدول الغربية تنعم المرأة والطفل وكل فئات المجتمع من مواطنين أصليين وجاليات وأقليات... بحقوق العيش الكريم، حتى حقوق الحيوان مكفولة تمامًا. نعم، هذا هو المفهوم الذي استوعبه الغرب وطبق مبادئه من عدالة وتسامح، وفشلنا نحن عن قصد أو عن غير قصد في تطبيقه، مع أن هذا المفهوم التقدمي لا يتعارض مع الدين الإسلامي.

إن بعض الفئات التي تسمي نفسها الصفوة صغّروا مفهوم الدين الإسلامي إلى مظهر عقيم ظاهري وإلى أفكار هدامة لا تصلح لزمننا هذا، ويريدون إكراه الناس عليها؛ متجاهلين قول الله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [1]، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [2]، وأنا أعتبر هذه

(١) الآية ٢٢ من سورة الغاشية
(٢) الآيات من ١ إلى ٦ من سورة الكافرون

الآية من أعظم ما قيل في التسامح: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. هل توجد ديمقراطية أكثر من هده الديمقراطية؟ وكذلك قول الله تعالى: «وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ"[1]. إنها آية الحرية والاختيار: حرية الإنسان في توجهاته وإيمانه وطريقة عيشه... إذا كان الله سبحانه وتعالى يمنحنا حرية الاختيار، فمن ذا يستطيع منعها؟ من يكون هؤلاء حتى يفرضوا على الناس أفكارهم؟ إن القرآن الكريم في هذه الآيات بلغ بنا قمة الديمقراطية والحرية في الاختيار وحقوق الإنسان التي ينادي بها الغرب والتي هي مبدأ من مبادئ الدين الإسلامي.

إننا لنجد في خطاب كل المفكرين المسلمين وعلماء الدين الإسلامي المتنورين الوسطيين أن الإسلام نزل رحمة بالعباد وأن الله غفور رحيم بعباده؛ يقبل التوبة، مستشهدين بقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[2]...

ولكننا نجد تطبيق مبادئ العدل والشورى والمساواة وحرية الرأي وحرية الاعتقاد... التي هي مبادئ إسلامية، أكثر في الغرب من مجتمعاتنا

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف

(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر

نحن! رأيت مبدأ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] في أناس يعيشون معنى الحرية المطلقة، وأناس يعيشون معنى المحافظة على دينهم، سواء كان الدين اليهودي، أو المسيحي، أو الإسلامي أو حتى في معتقدات أخرى مثل الهندوسية وغيرها، دون أن تعاني أية أقلية من أية مضايقات.

إن هدف الإسلام الأسمى هو تنظيم الحياة، وفي رأيي الشخصي أن الإسلام لا يتعارض مع التقدمية والحضارة، وخير دليل على ذلك هو وجود الجالية الإسلامية في أوروبا وأمريكا لعشرات السنين واندماجهم في المجتمعات الغربية، ما يثبت توافق الإسلام الحقيقي المعتدل مع الحضارات والثقافات الأخرى.

إن الديمقراطية علم قائم بذاته؛ يتعلمه الطفل في المدرسة وفي الأسرة منذ نعومة أظفاره، الديمقراطية طريقة وأسلوب للحياة.. إنها مسؤولية قبل أن تكون حرية؛ هكذا فهمها الغرب، فأحسن تطبيقها.

وقد بدأت أعراض هذا التطرف الفكري تظهر في الثمانينات نتيجة الثغرة والخواء الديني والفكري الناتجَيْنِ عن الفقر والجهل واليأس بالإضافة إلى الإهمال في أسلوب التعليم ونقص الإلمام بالجوانب الثقافية التي أنشأت أجيالاً غير واعية بدينها وبمفهوم

(١) الآية ٦ من سورة الكافرون

الوطنية والمواطنة الحقيقية، فاستغلّه ذو المصالح للعبث في أدمغة الشباب واستغلال عدم الوعي الكافي والجهل بالتعاليم الصحيحة للدين الإسلامي والخواء الثقافي الذي أدى إلى ظهور هذه الآفة، ألا وهي التطرف الديني.

إن الشباب في المدارس والجامعات لم يكونوا على فهم صحيح للدين، ونظام التعليم في الدول الإسلامية لم يُوْلِ اهتمامًا مناسبًا بتجديد وتطوير مناهج التعليم، ولم يُعطِ لمادة التربية الدينية البعد الفكري الحقيقي، حيث كانت النتيجة إدراك ناقص لمفهوم مبادئ الإسلام وتطبيقه، فعندما لم يحدث هذا أصبحت مادة التربية الإسلامية شريكًا في تخريج أجيال حاصلة على شهادات، لكنها جاهلة بثقافتها وبدينها؛ البعض منهم لا يستطيع الدفاع عن دينه بالحوار المنفتح والإقناع، وأصبح بإمكان أعداء الأمة أن يتلاعبوا بعقولهم كما يشاؤون، وهذا ما حدث في كثير من البلدان العربية والأوربية، فتم تجنيد الكثير من الشباب، والزج بهم في قضايا ليس لهم فيها ناقة ولا جمل.

ليس لنا مهرب - فيما أتصور - من مراجعة نظام التعليم في الدول الإسلامية وغير الإسلامية وحتى الغربية التي عانت ولا

زالت تعاني من الإرهاب الذي يلتهم الأخضر واليابس؛ إنها معركة فكر يجب أن تُواجَه بالفكر المتنور، لِنُحصّن أبناءنا من هذا الغول الذي يُسمّى بالجهل، والذي يؤدي إلى التطرف، تطبيقًا للحكمة القائلة: "يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدو بعدوه»، وإذا أرادت أية أمة أن تنهض، فلا مفر من تطوير مناهج التعليم، وترسيخ مبادئ العدالة، وتفعيل سُلّم القيم في المجتمع وغرس معاني التسامح وقبول الأخر والرحمة ونشر ثقافة السلام .

يجب علينا إذن أن نراجع منظومة التعليم، ومعها لا بد من مراجعة منظومة الوضع الاجتماعي والعدالة الاجتماعية وبث روح الأمل وتنوير العقول وترسيخ مبادئ العدل، حتى تشيع العدالة في المجتمع ويشعر بها كل فرد، لتفويت الفرصة على الذئاب التي تستغل الجهل أو الفقر أو اليأس لتمرير أفكارها السامة.

ولعل أغلب حاملي لواء مكافحة الإرهاب إنما يركزون جهدهم على المواجهة المسلحة، وهي بالضرورة غير كافية في هذا المضمار، لأنها -وإن أمكنها القضاء على الإرهابيين - فإنها لن تتمكن من تجفيف منابعه والقضاء على مصادره، وهذا لا يكون إلا من خلال تواصل إيجابي بين النخبة المثقفة والسلطة، بهدف تحقيق تنوير العقول بالفهم

الصحيح لمعنى الدين وترسيخ معنى الانتماء إلى الأوطان في الأجيال الصاعدة، بل ومجاورة هذا الانتماء لانتماء آخر أوسع وأعم، هو الانتماء إلى الإنسانية ككل!

وليس من الممكن أن ينجح التعليم في أي دولة إلا إذا تحقق فيه صفة المنظومة التي تتضافر فيها جهات عديدة لتُخرج منتجًا متناسقًا؛ لا يشعر المتلقي فيه بالتناقض أو الانفصال بين ما يتلقاه في أركان المنظومة: المدرسة والأسرة والإعلام وغير ذلك من عناصر.

فبعض الصور التي يراها العالم والغرب في إعلامهم عن واقع بعض الدول الاسلامية من نزاعات وعدم عدالة اجتماعية وإهمال البحث العلمي وغيرها من أمراض اجتماعية التي يجب إستأصلها, لا تخدم صورة الإسلام الحقيقية .

إن الإسلام لم ينتشر في الهند أو إندونيسيا بحد السيف، ولكن انتشر بأخلاق التجار المسلمين حين كانت أخلاقهم تستحق أن تكون قدوة يقتدي بها الناس ويطمحون أن يكونوا مثلهم، فهل الوضع الأخلاقي في بعض الدول الإسلامية الآن يشجع غير المسلمين على اعتناق الإسلام؟ بل وزاد الطين بلة, هذا الكم الهائل من القنوات الفضائية التي تبث حصصًا ومناقشات لا تعدو كونها

حوارات عقيمة يتشاجر فيها علماء الدين في قضايا أصولية وتراثية لا علاقة لها بالواقع المعاصر، وهذا يضر المجتمع أكثر من إفادته!

وبهذا فإننا لا نكون في حوار مع الآخر بهدف توصيل فكرة تسامح الإسلام مع الأديان، بقدر ما نتشاجر ونشوه أفكار المشاهدين عن الإسلام.

إن من الأفضل أن تتدخل الحكومات لتحصر القنوات الفضائية والوسائل الإعلامية المتعددة، وتنقحها، ولا تُبقي فقط سوى القنوات الجيدة والهادفة، والتي تتجاوز خطاب الداخل إلى خطاب الخارج، وقد يكون هذا آمنًا ومضمونًا إذا أشرف عليه مجلس مصغر من المثقفين والصفوة وأهل الذكر والعلماء في مجتمعنا لرسم سياسة عامة وسياسة إعلامية ممنهجة، تهدف إلى تطوير المجتمع ويكون على رأس أولويات هذا المجلس تنفيذ هذه السياسة على القنوات الإعلامية التي تبث بلغات العالم المختلفة، وتشرح تعاليم الإسلام السمحة بأسلوب موجه إلى الغرب: مسلمين وغير مسلمين، بحيث يوسع أفق المسلم، ويُعرّف غير المسلم بحقيقة الإسلام.

كفانا الاهتمام بالكم دون الكيف؛ يجب على الإعلام أن يكون بَنَّاءً؛ يخاطب الوجدان والعقل، ويخاطب الآخر بلغته، وهو

ما يعتبر من ضروريات الأمن القومي للبلدان الإسلامية، فالكثير من الحروب تعتمد على صناعة الكذب، وتشويه ديانات الشعوب المراد استعمارها بما يسمى بشيطنة الدين "ديابوليزاسيون دو لَغليجيون – diabolisation de la religion" أو تخويف شعوبها منه لإقناعها بضرورة قيام الحرب على شعوب أخرى لا ذنب لها إلا إيمانها بدينها وتشبثها به.

وكانت هذه الشيطنة من أسباب استعمار دول غربية لدول إسلامية أو غير إسلامية بحجة نشر الديمقراطية أو بحجة تطوير هذه الدول وانتشالها من بئر التخلف والرجعية وهي في الحقيقة لأغراض مادية بحتة، وهي اللعبة المكشوفة المستخدمة من قديم الأزل وحتى يومنا هذا.

يحتاج العالم الإسلامي إلى عقول منفتحة على العالم، خصوصًا في ظل العولمة.. هذه العقول التي يجب أن تكون مفعمة بالعلم والحضارة، وإلى جانب هذا يجب أن تفهم وتتمكن من لغة الحوار والعقلية الغربية وتجيد اللغات الغربية والثقافات الغربية إجادة تامة... تكون هذه الشخصيات خير سفير للأمة الإسلامية في الغرب، لكي تحاور المثقفين هناك، على أن تعمل بالتعاون مع هيئات ومنظمات حكومية رسمية، بالإضافة إلى تشجيع التبادل الثقافي بين الشرق والغرب بتبادل

الزيارات للشباب والطلبة الأجانب ليتعرفوا على الحضارة الإسلامية، وكذلك إرسال الشباب المسلم إلى الغرب ليكتشف الحضارة الغربية، فتكون خطوة على طريق تحقيق التبادل الفكري بين الشعوب.

كذلك يجب تفعيل دور المؤسسات الإسلامية الحكومية باعتبارها المختصة بالتعريف بالإسلام وتشجيع لغة الحوار بين الثقافات، بما يبرز أسس الإسلام وقواعده البعيدة عن التطرف والإرهاب، باعتبار الدفاع عن الإسلام قضية أمن قومي محددة وواضحة بالنسبة لكل الدول العربية والإسلامية.

إن الآخر لم يفهم معنى الإسلام الحقيقي، ولم يتعمق فيه، وهذا ليس تقصيرًا منه، ولكن كان إهمالاً مِنَّا، فلم نبذل أي جهد في سبيل إبراز الصورة الحقيقية للإسلام، ولم يكن استنباط الغرب لمفهوم الإسلام غريبًا إذ اعتمد على النظر إلى حال المسلمين المعاصرين، خصوصًا في منطقة الشرق الأوسط، رغم ما في هذه النظرة الاستنباطية / الاستدلالية من ظلم للإسلام، فهو لم يأمر بأي وضع من الأوضاع السلبية التي نراها في العالم الإسلامي الآن، ولعل المقولة الشهيرة التي نسبت إلى روجيه جارودي وإلى غيره من المستشرقين أيضًا: "الحمد لله أني عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمين" أبلغ دليل على الفجوة الواسعة بين الإسلام والمنتسبين إليه!

كما يفضل تفعيل وتشجيع دور جامعة الدول العربية بقسمها الخاص بحوار الحضارات إلى جانب دور المؤسسات الإسلامية الرسمية الأخرى مثل منظمة العالم الإسلامي والمؤسسات الفكرية الأخرى في العالم الإسلامي والعربي... لو قامت هذه الكيانات بالتنسيق بين المثقفين العرب والمثقفين في الغرب لترسيخ لغة الحوار وإيجاد مساحة للتعايش السلمي بين شعوب العالم، لَتَمَكَّن العالم الإسلامي من تجاوز مشكلاته الراهنة مع المجتمعات الغربية ولاستطاع تقليص مساحات عدم التفاهم والتعايش على خريطة العالم، خصوصًا في ظل ما نتابعه من برامج انتخابية في أوروبا تكون قائمة على تضييق أو حظر وجود المسلمين فيها أو التعامل مع المظاهر الإسلامية بعنصرية واضحة، بالإضافة إلى القرارات التي تتعلق بدخول أشخاص مسلمين إلى أراضيها...

هنا أيضًا طرف أساسي يضرب في عمق المشكلة ويزيدها تفاقمًا، وهو تثقيف الجيل الصاعد نفسه دينيًّا عبر القنوات الفضائية ووسائل التواصل الاجتماعي من خلال أئمة ومفتين لا تتوفر لديهم الدراية الكاملة بالدين وفروعه ومستجدات الحياة التي نعيشها، فتكون فتاواهم إما نقلاً عن فتاوى قديمة لا تتفق مع واقعنا أو حياتنا، وإما تكون فتاوى يغلب عليها الرأي والهوى والرغبة في الشهرة عن

طريق المخالفة، وإما تكون عن جهل بالمخاطَب والأساليب اللائقة للتعامل معه...

لا بد إذن أن يقوم المسؤولون والمثقفون ومن هم في قمة الهرم السلطوي بثورة سلمية فكرية وحضارية لإصلاح شأن البلاد والعباد في جميع المجالات.. لا تخرب، بل تصلح وتعمر! تأخذ بيد شعوبها لتطويرها، تبني و لا تهدم, تكون من القمة لتصلح القاعدة.

فعندما تضاءل الفهم والوعي الديني الصحيح لدى الشباب سمح بوجود ثغرة, فتمكن أصحاب المصالح منها، وبثوا سمومهم بالمفاهيم المغلوطة، وخلقوا بذلك بلبلة فكرية دعمت الفجوة وغذَّت روح الفرقة والتشرذم الفكري.

المرأة في الإسلام

لقد ظهر الإسلام في عصر كان الآباء فيه يئدون بناتهم، ويعبدون الأصنام، وتشتعل الحروب بين القبائل لسنين عديدة لمجرد ثأر...

ظهر هذا الدين الذي سطعت شمسه في بقاع المشرق والمغرب.. ذلك النور المشرق الذي أدى إلى ما أُطلق عليه فيما بعد الحضارة الإسلامية التي أنعمت بفضلها على أهل الشرق والغرب، وخصوصًا الغرب الذي يعترف بذلك.

من أهم المبادئ التي أرساها هذا الدين ميزان العدل بين الرجل والمرأة، فبعض العادات والتقاليد فى المجتمعات العربية والإسلامية هي التي فضلت الرجل على المرأة وهمّشت دورها وفرضت عليها قيودًا ما أنزل الله بها من سلطان!

إن الله - سبحانه وتعالى - خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة والآية تدل على ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1]، وهذا أوضح دليل على

(١) من الآية ١ من سورة النساء

أن الرجل والمرأة من نفس واحدة، وقد أعطى الإسلام للمرأة الحرية الكاملة في الوقت الذي كانت تعاملها فيه الحضارات الأخرى باعتبارها متاعًا؛ تُباع وتُشترى، ولم يكن لها الحق في الانتخاب أو التَمَلُّك، وكان أجرها في العمل أقل من أجر الرجل.

حتى أن المرأة في أوروبا وأمريكا قد حصلت حديثًا على جزء كبير من حقوقها ولا تزال في طريقها نحو المزيد، على عكس الإسلام الذي شرع منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا حقوق المرأة كاملة وأعاد لها كرامتها، فأعطاها الحرية أن تختار زوجها، ولها أن تخلعه إذا استحالت المعيشة معه، كما أنها في الإسلام متمتعة بحرية التصرف في مالها، ومحتفظة بشخصيتها المستقلة، ولها حق التملك والتجارة...

فالإسلام ينظر إلى العلاقة بين الرجل والمرأة باعتبارها علاقة تكاملية وليست تنافسية.. علاقة مودة ورحمة كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]..

أما بالنسبة إلى عمل المرأة، فإن الإسلام لم يمنعه في أي نص من نصوصه، إلا أن دور المرأة الأساسي والضروري يبقى تربية وتنشئة

(١) الآية ٢١ من سورة الروم

الأجيال، حيث لا تستطيع أي امرأة أو جهة أن تمنح لأطفال غيرها نفس الحنان الذي تعطيه الأم لأولادها، ومن هنا نستطيع أن نستنبط أن فقد الطفل لحنان وعاطفة الأم يجعله يحس بنقص عاطفي بالإضافة إلى الاضطراب النفسي...

إن الأم في الإسلام ليست فقط ذلك الوعاء الذي ينجب للمجتمع الأطفال، ولكنها مصدر العطف والحنان والتربية السليمة والقيم والأخلاق... كما يقول حافظ إبراهيم:

الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا

أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

هل هذه هي الصورة التي يفهمها الغرب عن الإسلام وموقفه من المرأة؟ الحقيقة أن الصورة في الغرب تبدو مشوهة عن الإسلام بصورة كبيرة، بفعل أصحاب المصالح الذين يحاولون باستمرار قطع أواصر التفاهم والتواصل بين الشعوب الإسلامية وشعوب العالم ويسعى أعداء البشرية والسلم العالمي خلق البلبلة في صفوف المجتمعات الإسلامية لكي يبقى أفراد المجتمع الإسلامي في حروب مستمرة طاحنة تحول بينهم وبين تقدمهم وازدهارهم، وتؤدي إلى ضياع كل ثرواتهم هباءً منثورًا في ظل صراعات لا حصر لها ولا جدوى من ورائها.

وقد نجح أصحاب المصالح هؤلاء في جعل العالم الإسلامي مسرحًا وحلبة صراع لمصالح دولية بدعمهم لفرق يُكَفّر بعضها بعضًا، ولا هَمَّ لهم سوى ذلك، وكان من الأولى أن تُستَثمر هذه الأموال لحل المشكلات اليومية التي تتخبط فيها جميع شرائح المجتمع بما يجعل شباب هذا المجتمع دائم التفكير في الهجرة غير المشروعة التي زادت وتيرتها في الآونة الأخيرة زيادة ملحوظة وسميت بقوارب الموت.

على الغرب أن يفهم أن من مصلحته أن يكون العالم الإسلامي والعالم العربي والعالم بصفة عامة مستقرًّا، لأن أي حرب ستلقي بنتائج سلبية عليهم من تكاثر المهاجرين غير الشرعيين ومن طالبي اللجوء مما يؤثر سلبًا على اقتصاد الدول الغربية.

إن الشباب في البلاد العربية يتعرض لظروف صعبة جدًّا على جميع المستويات وخاصتا الاقتصادية المتمثلة في متطلبات العولمة المتوحشة التي لا تُقِيْمُ وزنًا للشعوب الضعيفة... فمن هؤلاء الشباب من يقع فريسة للمخدرات ومنهم من يكون عرضة للانضمام إلى تيارات متطرفة هروبًا من واقعهم المرير... فمن الأفضل للدول الأوربية والولايات المتحدة أن تحل مشكلة الهجرة غير الشرعية من منبعها، وهذا يكون بالتعاون مع الدول الفقيرة لحل مشكلاتها، بدلاً من تصدير السلبيات والمشكلات إلى أراضيها.

المستفيد الوحيد من هذه الأوضاع هم أعداء الحوار والتعايش السلمي بين الثقافات، والذين يسيل لعابهم على الثروة التي سيجنونها من مناخ الفوضى والبلبلة بما يخدم مصالحهم الناتجة من بيع الأسلحة وتفكيك مشروعات نمو وتقدم هذه الشعوب، فتعود عليه هذه المصالح بالخسارة حيث يتهدد الاقتصاد الأوربي والأمريكي بعدم استقرار اقتصادي واجتماعي في هذه المنطقة!

وقد يكون هذا نابعًا من تخوّف هؤلاء من انتشار الإسلام الذي يهدد - حسب فهمهم - وجود الآخر والتعايش معه، مع أن الإسلام دين للإنسانية كلها، يهدف إلى أن يعيش الإنسان سعيدًا، ولعل أكثر الآيات دلالة على أن الإسلام دين تسامح وقبول الآخر هو قول الله -سبحانه وتعالى - : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[1]".

فالإسلام إذن يقبل الآخر، ويعطي الأقليات حقوقهم، ولا يعرف التفرقة بين الأجناس، ولا يدعو إلى فرض الرأي بالقوة، والتاريخ الإسلامي حافل بمواقف التسامح، ومنها موقف الدولة

(١) الآيات من ١ إلى ٦ من سورة الكافرون

الأندلسية على سبيل المثال من اليهود، إذ منحتهم حقوقهم بعد ما كانوا مضطهدين.

إن أعداء البشرية في جميع أنحاء العالم يريدون إطفاء نور الله باتهام الإسلام بجميع الصفات القبيحة، من بينها أنه يظلم المرأة ويمنعها من حقوقها، مع أنه هو الذي أعطى المرأة كامل حقوقها، بل وحقوق الفرد والحيوان وجميع المخلوقات، ويكفي أن في القرآن آيات تشير إلى أسماء حيوانات وحشرات وكل كبيرة وصغيرة في هذا الكون.

معايشة شخصية مباشرة:

في أثناء أحداث ١١ سبتمبر كنت في إحدى العواصم الأوربية لغرض الدراسة، وكنت أيامها أرتدي حجابًا، وبمجرد أن وقع انهيار البرجين في نيويورك في الحادث الإرهابي الأشهر في أمريكا، انقطعت الأغاني والبرامج في كل محطات الراديو والتلفزيون، ليذاع الخبر الذي هز العالم، والذي ترتبت عليه حروب وويلات ندفع -نحن - ثمنها إلى يومنا هذا!

في هذه اللحظة تحديدًا كنت في السوق لشراء بعض الأغراض، لاحظت أن كل الناس كانوا ينظرون إليّ وهم يكلمون بعضهم، لم أفهم شيئًا، فلم يكن هذا حال الأوروبيين قبل أحداث ١١ سبتمبر؛

لم يكونوا يستغربون من الحجاب، فذهبت مسرعة إلى البيت، وإذا بالمذيع في إحدى القنوات التلفزيونية يلقي الخبر وهو يقول: «لقد حدث شيء غير متوقع: جماعات إسلامية فجرت أطول برجين في العالم وأمريكا». وقامت الدنيا ولم تقعد، وعلمت ساعتها أن البرجين في أمريكا انهارا على أثر حادث إرهابي.. وقتها فقط فهمت لماذا كان الناس ينظرون إليّ مستغربين في السوق؛ إنه شعور غريب لمسته بنفسي أن يبدو على مظهرك أنك مسلم ملتزم بدينك بعد أحداث ١١ سبتمبر، حينها تتحول النظرة إليكِ وكأنك شريك في هذا العمل الإرهابي الجبان.

الحقيقة أن الأوروبيين كانوا متعاطفين مع أمريكا، وأصبح المسلمون في أوروبا مهددين في وجودهم؛ تهاجمهم كل وسائل الإعلام يوميًّا وهذا الهجوم لم يتوقف بعد ولكنه أخذ منحنيات أخطر وأشمل .. ويا له من إحساس فظيع! كيف تبرر أنك بريء؟ ولمن؟ وبأي وسيلة؟ فكل وسائل الإعلام الغربية أصبحت تبث صورة مشوهة عن الإسلام، وكأن كل المسلمين إرهابيون، في حين كان المسلمون والجالية المسلمة في العالم رافضة لهذا الهجوم بكل تأكيد، ولكن في نفس الوقت كان المسلمون في الغرب خائفين قلقين؛ كنت خائفة على أولادي وعلى

نفسي، وكانت الجاليات المسلمة بصفة عامة في غاية القلق والحرج مما كان يقال، وأصبح المسلم مهددًا، فقط لكونه مسلمًا، فأدركت ساعتها فظاعة أن يُضطهد الإنسان في دينه! وأن تشوه صورة أي دين يعتبر جريمة في حد ذاتها لان الانسان لا يختار لونه او جنسه او دينه انما يولد بهم بهذا الموروث والذي يجب على الإنسانية تقبله واحترام هذا الاختلاف الذي يمثل سر جمال العالم .

بعد أحداث ١١ سبتمبر هذه بفترة كنت في ندوة ثقافية في أمستردام بهولندا ، وكانوا يناقشون في الندوة موضوع يتهم الإسلام باضطهاد المرأة وبأنه يحض على ختان الإناث، بما يعتبر تعدى على جسم المرأة؛ يحرمها من أنوثتها وإحساسها.. وقد اندهشت كثيرًا، وتعجبت بسبب عدم وجود آية واحدة تنص على ختان الإناث، فشاركت في الحوار، وكنت - بفضل الله تعالى - متمكنة من اللغة الهولندية التي تعلمتها إلى جانب لغات أخرى، وأجبتهم بالدليل، وَبِلُغَتِهِم أمام الحضور، لأعلن أن هذا افتراء على الإسلام؛ لم يأمر به القرآن في آياته، بالإضافة إلى عدم تطبيقه في المجمل الأعم بالبلاد الإسلامية، وأن الأمر لا يعدو طقسًا تراثيًّا وإرثًا من العادات والتقاليد في بعض قُرى بلد أو اثنين، ولا علاقة له بالإسلام، والدليل أنني من المغرب العربي حيث لا تُخْتَتَنُ

الإناث بأي شكل من الأشكال هناك في هذه الدول، ولا في السعودية أو دول الخليج، وإن ختان الإناث عادة مقتصرة على بعض القرى في مصر والسودان تحديدًا فقط.

سكت المحاضر ولم يُجِبْ لأنه اقتنع بالدليل أمام الجميع، وعرفت من يومها أننا كأمة إسلامية يجب أن نتعلم اللغات ونكون على دراية بالإصدارات الثقافية سواء الكتب أو الأفلام أو البرامج التي تتناول الإسلام، تشويهًا أو حوارًا أو عرضًا... ولن يكون هذا إلا بتفعيل دور الملحقات الثقافية الدبلوماسية في الغرب، وكذلك تفعيل دور الجالية المسلمة في الغرب ورجال الأدب والفكر والمثقفين الموجودين في كل بقاع العالم ليكونوا همزة وصل وجسرًا بيننا وبين الآخر، لنشرح لهذا الآخر سماحة الإسلام، ونفرّق بين الإسلام وبين عاداتنا وتقاليدنا...

والحقيقة أن المدان الأول في هذا السياق هو الخلط بين الإسلام والعادات ، ولن أسعى إلى الحصول على صك البراءة لسلوكياتنا ومعاملاتنا، فرغم أن ديننا دين متين منفتح؛ يحفظ كل الحقوق، ورغم أنه بريء من كل الافتراءات الملصقة به.. وأنه يصلح لكل زمان ومكان... رغم كل هذا، فإن من الضرورة أن يُفهم ويُطبّق في نطاقه الواسع والصحيح.. والمثال التوضيحي على هذا أن كتب الفقه والعقل

والطب والقانون في البلاد الإسلامية واضحة تمامًا في شأن تجريم ختان الإناث، ورغم ذلك فإنه لا تزال هناك كتب تُباع جهارًا نهارًا؛ تحض على ختان الإناث، وتفصيلُ الأمر أن الإسلام أوصى بالختان بالنسبة إلى الرجل، وهو أمر مقرر منذ سيدنا إبراهيم أبى الأنبياء، وقد أتبتث البحوث العلمية أن ختان الرجل يقي من الكثير من الأمراض، في المقابل ليس هناك نص ديني صريح يأمر بختان الإناث، ولم يثبت علميًّا أن له فوائد تعود على المرأة، بل العكس هو الصحيح، والفريق الغالب من علماء الإسلام واضحون على تحريم ختان الإناث. والحديث الذي جاء فيه الأمر بالتخفيف في ختان البنات هو حديث ضعيف، وهو ما أكده علماء كبار مثل الدكتور محمود حمدي زقزوق، والمرحوم الدكتور محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر السابق، اعتمادًا على خلو القرآن الكريم من أي نص يتضمن إشارة من قريب أو من بعيد، بالإضافة إلى عدم وجود دليل صحيح السند من السنة المطهرة، ولا إجماع من العلماء على حكم شرعي فيه، وبالتالي فلا أصل له في الدين ويبقى أنه عادة مرفوضة مذمومة دينيًّا وعلميًّا.

المفارقة في التعامل مع قضية الختان هذه، بين تحريم وتجريم رسميينِ، وتساهل في توزيع كتب وفتاوى لا أصل لها تأمر بالعكس،

تقودنا - هذه المفارقة - إلى عمق المأساة، وهي عدم النظر إلى قضية الدين والمفاهيم الدينية باعتبارها قضية أمن قومي داخلي وخارجي: داخلي تفاديًا لظهور الجمعات التكفيرية التي تمارس العنف بحجة الإسلام وهو منها بريء، وخارجي لمنع مبررات التدخل العسكري في شؤون البلاد الإسلامية بحجة انتشالها من التخلف وتطويرها! فطالما تعاملنا مع قضية الحوار بين الثقافات وكأنها هامش ثانويّ؛ لا شأن له بالأمن القومي داخليًّا أو خارجيًّا، وتصحيح هذا الخطأ ضرورة ملحة لا غنى عنه، ووسيلته تكاتف الأمة الإسلامية واعتماد استراتيجية محددة وواضحة للدفاع عن تعاليم الإسلام الصحيح عن طريق دعاة منفتحين على العالم غير متشددين، وأن يكون لهم بُعد اجتماعي وعالمي، تطبيقًا لمبدأ أن الإسلام رسالة إلى العالم بأسره وليس خاصًّا بالأمة الإسلامية فقط، وأن تُسخّر كل الجرائد المحلية بشتى اللغات للدفاع عن الإسلام وتعاليمه السمحة في الداخل والخارج، وأن تُسخّر القنوات الفضائية للحوار مع الآخر دون أن يقتصر الحوار علينا نحن فقط، فيكون حوارًا محليًّا عقيمًا لا مغزى له، ولا هدف منه ولا جدوى. وأن تُفعّل أدوار جاليتنا المسلمة وبعثاتنا الرسمية وإمدادها بالكتب والإصدارات الثقافية التي تسهم في الدفاع عن تعاليم الإسلام السمحة...

على سبيل المثال، فإن مما يُفاجأ به الكثيرون في الغرب أن الإسلام لم يفرض تعدد الزوجات، أي لم يفرض على الرجل أن يتزوج أكثر من امرأة، ولا يعدو الأمر كونه أباح ذلك فقط في حالة وجود أسباب كعقم أو مرض إلخ... وبشروط وضوابط محددة، وعلى رأسها أن يعدل بين النساء ومعلوم أنه أمر شديد الصعوبة! يُفاجأ الغرب بهذا، لأن الصورة الراسخة عندهم عن الإسلام أنه لا يحترم المرأة، وأنه أباحها للرجال؛ يفعلون بها ما يشاؤون!

إن الرجل في الأغلب الأعم من المجتمعات والأزمنة وبطبيعته يتعرض للمخاطر أكثر من المرأة، فالحروب والمعارك يتحملها الرجال أكثر من النساء، كما أنه في بحثه على الرزق يجعله عرضة للموت أكثر من المرأة، وإذا أصاب الخلل التوازن بين عدد الرجال والنساء في المجتمع، فإنه قد يدفع إلى علاقات غير سوية، وبالتالي قد يؤدي إلى انحلال الأخلاق فيه.

أما الصورة الشائعة في أوربا والتي عاصرتها إبان وجودي في أوروبا كانت ترويج بعض وسائل الإعلام الغربية في مناقشاتها حول موضوع تعدد الزوجات في العالم الإسلامي وكأن ٩٠ في المائة من الأزواج المسلمين متزوجون زواجًا ثانيًا، في حين أن الإحصائيات تشير إلى أن

النسبة لا تتجاوز ٣ في المائة فقط، والرجال المتزوجون زواجًا ثالثًا أو رابعًا نسبتهم قليلة جدًّا، والحقيقة النهائية الأكيدة أن الرجل في الإسلام لا يتزوج إلا برضا المرأة وقبولها، وعدا ذلك فإن من حقها الطلاق أو الخلع.

هذا في حين يتغافل الغرب عن وجود كثرة الخيانات الزوجية عندهم بسبب مشكلات اجتماعية، ويتجاهلون سؤالاً مهمًّا في هذا السياق: ألا يعتبر التعدد في العلاقات بالصديقات (بالمعنى الجنسي) تعددًا أم لا؟ وما هو علاجه إذن؟

كما يتغافل الغرب ان التعدد هو في يد المرأة وليس الرجل هي التي تقبل به أو ترفضه.

إن التعدد في الإسلام له ضوابط وشروط، وأولها العدل، وليس لمجرد التعدد، ولكنهم يتهمون الإسلام بالسماح بتعدد الزوجات، في حين يتجاهلون أن التعدد محض إرادة وقبول من المرأة إن سمحت بذلك، فالتعدد أولاً وآخرًا ليس في يد الرجل وحده، وإنما في يد المرأة إن قبلت بذلك!

إن من يمنع التعدد في ظل وجود أسباب إنما يساعد على العبودية الجنسية، فمن السهل للرجل المقتدر ماديًّا ويمكن للرجل الذي يعاني

من شره جنسي أن يستغل النساء دون أن يتحمل أي مسؤولية، بمعنى أنه يمكن ألا يتزوجها، وهذا يندرج تحت باب استغلال المرأة، والمرأة التي تقبل أن تكون زوجة ثانية ، فقد يكون منطقها أنها ترفض هي الأخرى أن تكون ملكًا لشهوة الرجل فحسب، فاختارت أن تكون زوجته؛ يخاف عليها ويقدرها ويتقاسم العبء معها... والمرأة أدرى بما يؤرقها وما يعذبها في وحدتها أو في ترملها، لذا فهي تفضل أحيانًا أن تصبح الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة على أن تبقى وحيدة.

ولو اطلع الغرب على الأحداث التاريخية لعرفوا أن القيم الإسلامية وضعت كل إنسان في مكانه اللائق، فبعض النساء في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩: ١٩٤٥م) طالبن بتعدد الزوجات، وفي أعقاب المؤتمر الذي عُقِدَ بألمانيا سنة ١٩٤٨ أوصى بإباحة تعدد الزوجات بألمانيا لحل مشكلة تكاثر النساء.

ويتساءلون أيضًا عن حصول الرجل على ضعف ما تحصل عليه المرأة في الميراث، باعتبار ذلك تمييزًا ضد المرأة، والحقيقة أنه تمييز بالفعل، ولكنه مع المرأة وليس ضدها، وفي إطار السلوك العام للإنسان. كيف ذلك؟ أولاً: لا تنطبق حالة الضِّعف هذه إلا مع الإخوة الأشقاء الذين يرثون أحد أبويهم فقط، فالإخوة لأمٍّ يرثون بالتساوي مثلاً،

والأب والأم بالتساوي، كما أن المرأة في السياق الإسلامي مكفولة دائمًا من الرجل، وهو المأمور بالإنفاق عليها، ومالها لها وحدها؛ ليست مأمورة بإنفاقه في شيء من أمور الأسرة.

أما بالنسبة إلى كون شهادة المرأة تعدل نصف شهادة الرجل، وهو ما أثار جدلاً كبير في أوساط المفكرين، فهو أمر مرتبط بطبيعة المرأة غير المختلطة بالتجارة ومجالس الرجال، والتي إذا صادفها شجار عنيف في الطريق مثلاً، فإنها بحكم تكوينها الجسدي الأضعف من تكوين الرجل يصعب أن تدخل بين الرجال وترى بعينها ما يحدث، وكذلك لرقة مشاعرها فهي لا تستطيع أن ترى مناظر العنف... والأمر الحاسم في موضوع الشهادة هو صدق النقل، وصدق النقل يقتضي المعايشة، ولهذا تحتاج شهادة المرأة إلى شهادة امرأة ثانية، كما يحتاج الرجل إلى شهادة رجل آخر، لضمان الصدق، وشهادة الرجل الواحد وحده لا تكفي، وإنما تدعمه شهادة المرأتين، وشهادة المرأتين تدعمها شهادة الرجل.

نظرة الغرب للمرأة المسلمة المحجبة.

إن الإنسان البدائي كان عاريًا، وكلما تطور كان يغطي جسده، ويعطي لمظهره اهتمامًا خاصًّا به. أما دعاة التقدم الذين يتشدقون

بقولهم إن الإسلام يمنع المرأة من ارتداء ما تشاء، فقد نقلوا عمن أخطأ الفهم، فالإسلام مبني على خمس قواعد، والمرأة غير المحجبة تبقى مسلمة كما هي.

في الإسلام مساحة كبيرة لحرية الثياب بشرط ستر البدن، والإسلام كدين ينظر إلى الحريات بطريقة نسبية؛ لا تتعدى حريةُ الفرد فيها على حرية المجتمع، وهي القاعدة الليبرالية الكبرى المتبعة حتى في الغرب بلاد الحريات، حيث لا يستطيع أي فرد في المجتمع أن يفعل ما يشاء أو يرتدي ما يشاء متى يشاء إلا في إطار حرية نسبية يجب أن تتماشى مع نسق المجتمع، وعلى سبيل المثال: هل المرأة الأوربية حرة في ارتداء ما تشاء في أماكن العمل والبنوك والطرقات؟ الإجابة: لا؛ حتى في العالم الغربي ليست المرأة بكامل الحرية، والإسلام ربط شكل ملابس المرأة بالحشمة التي هي ستر البدن لحفظه وصيانته فقط.

هذه الصورة ليست مطروحة على الساحة الأوربية؛ ما يُحتّم علينا أن نشرع على الفور في توصيلها إليهم وتبليغهم بها، ولكي يتم هذا بشكل فعال، فإن علينا أن نعيد النظر في الأمور التالية:

١- المناهج الدينية، حيث يجب عليها أن تعلم الأجيال الصاعدة المعنى الحقيقي للدين الإسلامي وعلى وجوب تعايش الأديان

جنبًا إلى جنب، وتعريفهم أن هذا لا يتعارض مع الإسلام، مع توعيتهم بمفاهيم التقدم والعدل والديمقراطية.

٢- إعداد الأئمة الذين تتوفر فيهم شروط العلم والإحاطة بالمجريات والأحداث واللغات والمستجدات في جميع الميادين.

٣-ترسيخ مفهوم التسامح وتقبل الآخر والحوار معه مهما اختلفت الاتجاهات.

٤ -رفع أجور الأئمة والعلماء، لكيلا يضطر العالم إلى بيع علمه وتكييف فتواه لمن يدفع أكثر.

٥- ترسيخ الحريات وقبول الرأي الآخر.

٦- الاهتمام بالشباب.

٧- تشكيل مجلس يضم شرائح من المفكرين المسلمين بجميع اتجاهاتهم ومناهجهم ليكون اللبنة لإنشاء سياسة إسلامية تقدمية همها الوحيد العيش الكريم لجميع المسلمين وللإنسانية ككل، والابتعاد عن التشرذم والتفتت، تطبيقًا لقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [1].

(١) من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

٨- تغيير السياسة الإعلامية بحيث يكون الاهتمام أكبر بالعقل والتفكير والثقافة والانفتاح الإيجابي على الثقافات الأخرى، وتشجيع البرامج الإعلامية التي تهتم بالثقافة.

٩- التبادل الفكري والثقافي والشبابي بين الدول الإسلامية والغرب على جميع المستويات.

١٠- الاستفادة من تطور الحضارة الغربية في المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية...

١١- إظهار رجل الدين بالصورة اللائقة في الأفلام والمسلسلات وعدم تقديمه باعتباره المتطرف أو الإرهابي أو في موضع السخرية والاستهزاء... فالأولى بنا أن نحترم رجل الدين في مجتمعنا قبل أن نقنع الغرب بذلك.

١٢- مساعدة الجاليات المسلمة وربطها بأوطانها ودعم قنوات التواصل معها في جميع المجالات وخصوصًا المجال الثقافي، بتعليم أولاد هذه الجاليات لغتهم الأم وتعاليم دينهم الصحيح، وتفعيل دورهم ليكونوا خير سفير لثقافتهم وحضارتهم، وللدفاع عن الإسلام الصحيح.

١٣ - إطلاق قنوات تلفزيونية وإذاعية وأفلام هادفة باللغات المختلفة لتوضيح الصورة الحقيقية للدين الإسلامي؛ تكون موجهة للغرب باللغة والأسلوب اللذين يفهمهما وعدم ربط كلمة الإسلام بالإرهاب فى وسائل الإعلام .

١٤ - تفعيل دور الجاليات المسلمة التي تعيش في الغرب وتمكينهم من الدفاع عن الإسلام.

١٥ - خلق فرص للشباب في أوطانهم، وتفعيل قيمة العدل في المجتمع، وتفعيل دور الأغنياء فيه ليكونوا عونًا لمجهودات الحكومات في إصلاح وتطوير المجتمع.

١٦ - إعداد المرأة ومساعدتها ماديا ومعنويا من قِبل الجهات الرسمية ومد العون لها باعتبارها مربية الأجيال.

١٧ - إعداد المدرسين ورفع أجورهم ليتسنى لهم العيش الكريم الذي من خلاله يمكنهم القيام بدورهم الفعال في إعداد الشباب الذين هم مستقبل الأمة.

١٨ - الاهتمام بالثقافة وتشجيع الكُتاب والحركة الفكرية الإبداعية، والنمو بالذوق العام من خلال تسليط الضوء على المفكرين والمبدعين والعلماء.

مفاهيم عامة ينبغي فهمها على الوجه الأمثل

الإسلام دين من الأديان الإبراهيمية، يحتل المرتبة الثانية عالميًّا من حيث عدد المعتنقين بعد المسيحية، وقد اشتق تسميته من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (١) ومعنى اللفظ الاستسلام لله، أي التسليم الكامل لله في كل شؤون الحياة، ويؤمن المسلمون أن الإسلام آخر الرسالات السماوية وأنه ناسخ لما قبله من الديانات، كما يؤمنون بأن محمدًا -ﷺ- خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه مكلف بتوصيل الرسالة إلى الإنس والجن.

من أسس العقيدة الإسلامية الإيمان بالله إلهًا واحدًا لا شريك له، ورسله، الذين أرسلوا قبل محمد، وبكتبهم التي بعثهم الله كي ينشروها للناس، كالزبور والتوراة والإنجيل.

يؤمن المسلمون كذلك أن الله هو الذي خلق الكون بكل ما فيه، وأن القرآن هو الكتاب الموحى من الله سبحانه وتعالى إلى النبي -ﷺ- عن طريق جبريل.

(١) من الآية ٧٨ من سورة الحج

والإسلام - كما يُعرّف نفسه في القرآن - هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]، ومطلوب من الناس أن يلتزموا بأمر الله سبحانه وتعالى التالي: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]، كما يؤمن المسلمون بأن الحنيفية هي أساس دين إبراهيم، ويرون أن الاختلاف بين الأديان الإبراهيمية ليس في العقيدة، وإنما في التشريعات الدنيوية والعلاقات الاجتماعية، والعقيدة هي مجموعة المبادئ التي على المسلم أن يؤمن بها وهي ثابتة لا تختلف باختلاف الأنبياء. أما الشريعة فهي اسم للأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل.

وفي المعتقد الإسلامي عن الله، فإنه ليس كمثله شيء، أي أنه مختلف تمامًا عن مخلوقاته وبعيد عن تخيلاتهم، وليس له صورة ممكنة ولا هيكل مُتَخَيَّل، وهو واحد أحد، لهذا لا يتفق المسلمون مع عقيدة الثالوث المسيحية التي تقوم على وجود الله في ثلاثة أقانيم، فضلاً عن عدم الإيمان بألوهية المسيح الذي هو بشر رسول كما ينص عليه القرآن، ومن أهم ما يستدل المسلمون به على ذلك، سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

(١) من الآية ٣٠ من سورة الروم

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم

الإسلام والديانات الاخرى

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]، ويقول أيضًا: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[2]، ويتعامل المسلمون مع هذه الآيات باعتبارها أساس التعامل مع غير المسلمين في حالتي السلم والحرب.

ويؤمن المسلمون أن الزبور والتوراة والإنجيل كتب سماوية؛ أنزلها الله على أنبيائه: داود وموسى وعيسى -عليهم السلام -، لكنهم لا يؤمنون بقدسية النسخ الحالية منها، ويعتقدون أنها نسخ محرّفة وضعيّة، وأن الكتب الأصلية ضاعت مع مرور الزمن لأسباب مختلفة، كالتأخر في تدوينها ووفاة حفظتها...

---

(١) الآيتان ٨، و٩ من سورة الممتحنة

(٢) الآية ٦ من سورة الكافرون

الإسلام والصابئية المندائية

والصابئة كما في المعتقد الإسلامي هي ديانة إبراهيمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [1]، فذكرها في هذا السياق ضمن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يدل على اشتراكهم مع الأديان الإبراهيمية في وحدة المفهوم العام، والصابئة بذلك أقدم من اليهودية والمسيحية، ولهم كتابهم المقدس الخاص بهم الذي يسمى "جنزاربا" أي الكنز العظيم، والذي يجمع صحف أنبياء الله: آدم وشيت بن آدم، ونوح، وسام بن نوح، وإدريس، ويحيى. وقد ورد ذكر أنبياء الصابئة في آيات قرآنية كثيرة.

الإسلام واليهودية

يأمر الإسلام المسلمين بحسن معاملة أهل الكتاب سواء كانوا يهودًا أم مسيحيين، ما داموا غير محاربين، وبناء على هذا المفهوم فقد أبرم النبي ﷺ العهود مع اليهود في المدينة، واعتبرهم جزءًا من الأمة الإسلامية، وحارب الكثير من اليهود جنبًا إلى جنب ضد البيزنطيين والفرنجة، اما الذين أخرجهم من المدينة، فكان ذلك عقابًا تأديبيًّا

(١) الآية ٦٢ من سورة البقرة

عسكريًّا وسياسيًّا، ولم يكن له أي أصول دينية، فإخراجهم كان بسبب الخيانة العظمى وليس بسبب يهوديتهم.

كذلك الأمر في الصراع العربي الإسرائيلي: إن الصراع بين العرب وإسرائيل صراع على الأرض وليس من أجل الدين، فهم أهل كتاب إجمالاً؛ يتشارك المسلمون واليهود في إيمانهم بنبوة موسى وغيره ممن وردوا في التوراة، وبحادثة خروج بني إسرائيل من مصر، وشق البحر الأحمر، وكذلك في قدسيّة بعض الأماكن مثل مدينة القدس الحرم الإبراهيمي وحائط البراق الذي تُسميه اليهود "حائط المبكى».

الإسلام والمسيحية

المسيحيون - أو النصارى كما سموا في القرآن - وفقًا للشريعة الإسلامية هم أقرب الناس مودة للمسلمين، ويبيح الإسلام للمسلمين أشكال التعامل الاجتماعي كافة مع النصارى ويأمر بالتعامل الحسن معهم. أما المسيح في القرآن فيُدعى "عيسى" بدلاً من "يسوع"، ويعتقد البعض أن هذا تعريب لاسمه اليوناني "إيسوس"؛ وهو نبي مؤيد بالروح القدس ويؤكد القرآن أنه كلمة الله، الوجيه في الدنيا والآخرة، قول الحق، الذي جاء بالحكمة... ويذكر القرآن أيضًا عددًا من أعمال عيسى ومعجزاته الواردة في الأناجيل وأخرى مذكورة في

الكتب الأبوكريفية، ويشبهه بآدم حيث خلقهما الله من تراب ثم نفخ فيهما من روحه، وتشير العديد من الآيات إلى عذرية مريم وحملها بأمر الله دون أن يمسسها بشر: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾[1]، وتختم بالإعلان أن عيسى وأمه هما آية للعالمين.

لكن المختلف فيه بين الديانتين هو ما يتعلق بألوهية المسيح، صلبه، ومقتله.

الإسلام والعقائد الشرقية

الهندوسية

الهندوسية والإسلام متشابهتان في عدّة نواح، رغم المفهوم الشائع عن قيام الهندوسية على تعدد الآلهة، فالهندوسيّة الحديثة ترى أن جميع الآلهة القديمة التي عبدها الهندوس إنما هي أسماء وصفات للإله الواحد، وهي الصورة نفسها تقريبًا التي يؤكدها القرآن باعتبار أن لله الأسماء الحسنى، والتي جاءت متفرقة وغزيرة في القرآن الكريم، وحددتها السنة النبوية المطهرة بتسعة وتسعين اسمًا، كذلك يؤمن الهندوس بالحساب والجزاء بعد الموت، وبأن الله هو الذي سيحاسب الناس أجمعين مثلما يؤمن المسلمون.

(١) الآية ٩١ من سورة الأنبياء

لكن تختلف الهندوسيّة عن الإسلام من حيث لا يؤمنون بالجنة والنار، وإنما يؤمنون بجزاء آخر، فيقولون إن المحسن عندما يموت تبقى روحه باقية، لأنها جزء من الإله، فيكون جزاؤها أن توضع في جسد صالح، وهو ما يعرف عندهم بتناسخ الأرواح، كذلك يحرق الهندوس جثث الموتى بعد الوفاة، في حين يدفنها المسلمون في التراب إيمانًا منهم أن هذا "إكرام للميّت».

السيخية

والسيخية نتاج مباشر للاحتكاك بين الهندوس والمسلمين، حيث تجمع بين المعتقدات الهندوسية والإسلامية، فيؤمنون بخالق واحد، ويحرمون عبادة الأصنام، ويدعون إلى المساواة بين الناس، ووحدانية الخالق الذي لا يموت والذي ليس له شكل معين، ويحرمون الرهبنة، ويحثون على السعي لطلب الرزق، ويعتقدون بالنبوة والرسالة.. وكذلك تقوم السيخية على خمسة مبادئ / أركان: إطلاق شعر الرأس واللحية وعدم حلقهما، وتضفير الشعر، ولبس «الكاتشا» أي سروال متسع يضيق عند الركبتين، وحمل «الكربال» وهو سيف أو خنجر للسيخي ليحتمي به، ووضع سوار من حديد حول المعصم هو سوار «الكارا».

ولكن يتجلى الاختلاف بين السيخية والإسلام كون السيخية

تبيح شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وتحرّم لحم البقر لأنها مقدسة وفقًا لهم.

ويتشابه الإسلام أيضًا مع الديانة الكونفوشيوسية في الإيمان بالقضاء والقدر، والدعوة إلى طاعة الوالدين، واحترام الحاكم والأخ، والإخلاص والوفاء للصديق، وعدم ظلم الناس قولاً وفعلاً، والتحلي بالأمانة، وتختلف عنه في كونها تؤمن بوجود آلهة متعددة للجبال والأرض والقمر والسماء وغير ذلك، وتقديسها لأرواح الأجداد وعدم الاعتقاد بالجنة والنار والبعث...

البوذية

تدعو الديانة البوذية إلى عدم التعلق بالدنيا لأنها زائلة، وإلى جهاد النفس والبدن والعقل من أجل الوصول إلى النور الداخلي، وتعتقد أن هناك مراقبًا داخليًّا للإنسان، وفي هذا ما يشبه النص القرآني: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]، وتدعو البوذية إلى مبادئ كثيرة يدعو إليها الإسلام ويُعاقب من يخالفها، كعدم السرقة والابتعاد عن الزنا... ولكن يختلف الإسلام عن البوذية في كونها ترى أن الحياة شقاء متصل وتعاسة دائمة، أما الإسلام فيرى الحياة بوجهيها: بخيرها وشرها،

(١) من الآية ١٦ من سورة ق

وحلوها ومرها، والإنسان مطالب في هذه الحياة أن يعمل الصالحات، لا أن ينتظر الخلاص منها كما في البوذية.

الإسلام والاخلاق

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[1]، فَيَمُنّ الله على المؤمنين بأنه أرسل رسوله لتعليمهم القرآن وتطهير قلوبهم من الشرك والأخلاق الرديئة كالغل والحسد وتطهير الأقوال والأفعال من الأخلاق والعادات السيئة، وقد قال عليه الصلاة والسلام بكل وضوح: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، فأحد أهم أسباب البعثة هو الرقي والسمو بأخلاق الفرد والمجتمع.

ولما سُئل الرسول ﷺ: أي المؤمنين أفضل إيمانا؟ قال ﷺ: «أحسنهم أخلاقا»[3]، وقد سمى الله الإيمان برًّا، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ

(١) الآية ٢ من سورة الجمعة
(٢) البيهقي ٢١٣٠١
(٣) الترمذي ١١٦٢، وأبو داود ٤٦٨٢

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[1]، والبر اسم جامع لأنواع الخير من الأخلاق والأقوال والأفعال، ولهذا قال النبي ﷺ: «البر حسن الخلق»[2].

ويظهر الأمر بجلاء في قول النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[3].

فالله سبحانه وتعالى لا يأمر عباده بشيء إلا وينبه إلى المقصد الأخلاقي من هذا الأمر أو أثره على النفس والمجتمع، وأمثلة هذا كثيرة، منها:

الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[4].

---

(١) الآية ١٧٧ من سورة البقرة

(٢) مسلم ٢٥٥٣

(٣) مسلم ٣٥

(٤) من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1]، فمع أن الزكاة إحسان للناس ومواساتهم فهي أيضًا تهذب النفس وتزكيها من الأخلاق السيئة.

الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[2]، فالمقصد النهائي من مشروعية الصيام هو تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولذلك يقول ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[3]، فمن لم تتأثر سلوكياته بالصيام في نفسه وأخلاقِه مع الناس لم يحقق هدف الصوم.

وموضع الأخلاق في الإسلام من أسمى وارفع المواضع، والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة ومن ذلك:

- **أنه أثقل الأعمال في الميزان يوم القيامة:**

يقول النبي ﷺ: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»[4].

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة
(٢) الآية ١٨٣ من سورة البقرة
(٣) البخاري ١٨٠٤
(٤) الترمذي ٢٠٠٣

- **أنه أكبر الأسباب لدخول الجنة:**

يقول النبي ﷺ: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[٥].

- **أن صاحب الخلق الحسنة في أقرب المنازل من رسول الله ﷺ يوم القيامة: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا»[٦].**

والأخلاق الحسنة أمر عام وحاكم في علاقة المسلم بجميع الناس، لا فارق بين غني وفقير، ولا رفيع ووضيع، ولا أسود وأبيض، ولا عربي وعجمي.

الأخلاق مع غير المسلمين:

يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالأخلاق الحسنة مع الجميع، فالرحمة والعدل والإحسان هي الأخلاق التي يجب على المسلم أن يتمثلها في سلوكه وأقواله مع المسلم وغير المسلم، ويحرص أن يكون ذلك الخلق الحسن هو الطريق لدعوة غير المسلمين لهذا الدين العظيم.

---

(٥) الترمذي ٢٠٠٤، ابن ماجه ٤٢٤٦

(٦) الترمذي ٢٠١٨

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[1].

الأخلاق مع الحيوانات:

أخبرنا الرسول ﷺ عن امرأة دخلت النار بسبب حبسها لهرة فماتت من الجوع، كما أخبرنا في المقابل عن رجل غفر الله له ذنوبه بسبب سقيه لكلب اشتد عليه العطش، قال ﷺ: «دخلت امرأةٌ النارَ في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض"[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له" قالوا: يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: "في كل كبد رطبة أجر"[3]. هذه الوصايا متعلقة بالحيوان، فما بالك بالإنسان وبالنفس البشرية التي جعل من أحياها كأنه أحيا البشرية كلها؟!

(١) الآية ٨ من سورة الممتحنة

(٢) البخاري ٣١٤٠، مسلم ٢٦١٩

(٣) البخاري ٥٦٦٣، مسلم ٢٢٤٤

والإسلام في غاياته العامة والشاملة إنما يأمر بعمارة الأرض، بمعنى العمل فيها والتطوير والإنتاج وتشييد الحضارة، مع المحافظة على هذه النعمة والنهي عن إفسادها والإسراف في استغلال مواردها، سواء أكان ذلك الإفساد يعود على الإنسان أو الحيوان أو النبات، فإنه عمل يرفضه الإسلام ويبغضه، فالله سبحانه لا يحب الفساد في أي جانب من جوانب الحياة، كما قال تعالى: «وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ٢٠٥»[1].

ويصل هذا الاهتمام إلى درجة وصية النبي ﷺ بفعل الخير وزراعة الأرض حتى ولو كان وقت قيام الساعة: «إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل".

التجارة:

يضبط الإسلام التجارة حتى لا يقع الإنسان فريسة لطغيان حب المال والشهوة فيه، فيحدد إطارًا عامًّا للتجارة يتضح في النقاط التالية:

- النهي عن التجاوز والظلم في الموازين وتوعُّد فاعلِ ذلك بأشد العقوبات: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[2].

(١) من الآية ٢٠٥ من سورة البقرة

(٢) الآيات من ١ إلى ٣ من سورة المطففين

- الحث على السماحة واللين في البيع والشراء، كما قال ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"[1].
- إتقان العمل وإخراجه في أحسن صورة، كما قال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".[2]
- الالتزام بالمواعيد المبرمة مع الناس، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث" وذكر منها: "وإذا وعد أخلف"[3].

والرائع أن الإسلام لم يعتمد أي استثناءات في باب الأخلاق، والمسلم محكوم بتطبيق شرع الله وامتثال الأخلاق الحسنة حتى في الحروب وأشد الظروف، فنبل الهدف والغاية لا يبرر الوسيلة السيئة ولا يغطي خطأها وضلالها كما يؤكد الإسلام، ولهذا وضع الإسلام القواعد التي تحكم المسلم وتضبط تصرفاته حتى عند العداوة والحرب، حتى لا يكون الأمر خاضعًا لغرائز الغضب والتعصب أو إشباعًا لنوازع الحقد والقسوة والأنانية.

---

(١) البخاري ١٩٧٠

(٢) أبو يعلى ٤٣٨٦، البيهقي في شعب الإيمان 5313

(٣) البخاري ٣٣

من أخلاق الإسلام في الحرب:

١ - الأمر بالعدل والإنصاف مع الأعداء والنهي عن ظلمهم والاعتداء عليهم: كما قال تعالى: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ"[1]، أي لا يسيطر عليكم بغضكم لأعدائكم فتتجاوزوا وتظلموا، بل التزموا بالعدل في أقوالكم وأفعالكم..

٢ - النهي عن الغدر والخيانة مع الأعداء: فالغدر والخيانة محرمة حتى مع الأعداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[2].

٣ - النهي عن تعذيب الأسرى أو التمثيل بالجثث، كما قال ﷺ: «ولا تمثلوا»[3].

٤ - النهي عن قتل المدنيين الذي لا يشاركون في الحروب وكذلك عن إفساد الأرض والبيئة، وفي وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة المسلمين لأسامة بن زيد حين بعثه قائدًا على الجيش إلى الشام قال: «... لا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا

---

(١) من الآية ٨ من سورة المائدة

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الأنفال

(٣) مسلم ١٧٣١

شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكل، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له...»[1].

لا تكاد تقوم حضارة إلا بالأخلاق، والأخلاق منبعها الدين أو القانون، والدول المتقدمة التي قد لا تعتمد الدين مرجعية أساسية لضبط حركة المجتمع إنما تتخذ القانون بديلاً له، وتكون الطامة الكبرى حين ينعدم في الدولة الدين والقانون معًا.

وقد تغنى الشعراء بالأخلاق في قصائدهم، ومنها ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي في بيته المشهور:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فـإن هُمُوُ ذهبـت أخلاقهم ذهبوا

ويقول شوقي أيضًا:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم

فأقم عليهم مأتمًا وعويلا.

---

(١) ابن عساكر ٢ / ٥٠

وللأخلاق دور كبير في تغير الواقع الحالي إلى العادات السيئة، لذلك قال الرسول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، ويكون النبي ﷺ بهذا القول قد حدد الغاية من بعثته بإتمام مكارم الأخلاق في نفوس أمته والناس أجمعين، حتى تتعامل البشرية بقانون الخلق الحسن.

الأخلاق بين الإسلام والفلسفة:

تقوم الفلسفة الإسلامية في مجملها على التعايش مع الآخر، سواء بين الناس أو بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان أو بعلاقة الإنسان مع ما يحيط به من جماد أو مخلوقات أخرى

الإنسان في الإسلام يجب أن يعيش في سلام مع كل من يحيط به من أشياء أو مخلوقات وعليه أن يحتاط من أربعة أعداء تهدف إلى تضليله وتدمير المجتمع بشكل عام، وهي: النفس، والهوى، والشيطان، والدنيا.

ومصدر الأخلاق الإسلامية هو الوحي، ولذلك فهي قيم ثابتة ومثل عليا إلهية؛ تصلح لكل إنسان بصرف النظر عن جنسه وزمانه ومكانه ونوعه، أما مصدر الأخلاق النظرية فهو العقل البشري المحدود أو ما يتفق عليه الناس في المجتمع «العرف»، ولذلك فهي متغيرة من مجتمع إلى آخر ومن مفكر إلى آخر.

مصدر الإلزام في الأخلاق الإسلامية هو شعور الإنسان بمراقبة الله عز وجل له، أما مصدر الإلزام في الأخلاق النظرية فهو الضمير المجرد أو الإحساس بالواجب أو القوانين الملزمة. مصدر الأخلاق الإسلامية هو الوحي، ولذلك فهي قيم ثابتة ومثل عليا تصلح لكل إنسان بصرف النظر عن جنسه وزمانه وبيئته، وهي متعة في الوقت نفسه لتراعي هذه المتغيرات، أما مصدر الأخلاق النظرية فهو العقل البشري المحدود أو ما يتفق عليه الناس في المجتمع بمصطلح الأعراف والتقاليد، ولذلك فهي متغيرة من مجتمع لآخر ومن مفكر لآخر.

مصدر الإلزام في الأخلاق الإسلامية هو شعور الإنسان بمراقبة الله عز وجل له حتى لو كان الإنسان في مأمن من مراقبة غيره ومن سطوة القوانين، أما مصدر الإلزام في الأخلاق النظرية فهو الضمير المجرد بحسب ما يسميه البعض، أو الإحساس بالواجب بحسب ما يسميه البعض الآخر، أو القوانين الملزمة.

خصائص الأخلاق:

والأخلاق لها أنماط ومبادئ عامة؛ لا تهدف إلى خنق الإنسان أو إفقاده ملذته بالدنيا أو جعله يعيش حياة جافة لا متعة فيها، ومن هذه الخصائص العامة للأخلاق:

• التوازن بين مطالب الروح والجسد، فلا تمنع حاجة الجسد من الشهوات والرغبات بل تضعها في إطارها الشرعي، فقال الله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1]، فمن حق الإنسان أن يشبع رغباته وفق الضوابط الشرعية لا أن يُحرم منها على الإطلاق.

• اتصاف الأخلاق الإسلامية بالمرونة والسهولة وملاءمة المتغيرات الاجتماعية والصفات الشخصية المختلفة لكل إنسان: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2]، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3].

• إقناع العقل وإرضاء القلب، فكل أوامر الشريعة في الإسلام يكون معها مبرراتها، فيقول الله مثلاً: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[4]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[5]، فالأخلاق الإسلامية تقبلها الفطرة السليمة ولا يرفضها العقل السوي.

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأعراف
(٢) من الآية ٧٨ من سورة الحج
(٣) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة
(٤) الآية ٣٢ من سورة النساء
(٥) الآيتان ٩٠، و٩١ من سورة المائدة

والأزمة السائدة في المجتمعات الإسلامية الآن إنما هي في حقيقتها أزمة أخلاق ليس أكثر.

الإسلام والسماحة:

وقد يكون من السماحة أن يتنازل المرء عن حظ نفسه أو جزء من حقه، ليحلّ مشكلة، أو ليطوي صفحة طال الحديث فيها، أو ليؤلف قلوب الناس، أو ليتقرب من أخيه، وذلك بالضرورة بعد أن يكون قد حقق الأمور الأساسية من عدم التعدي على حقوق الناس أو يتعالى عليهم أو غير ذلك من أمور مرفوضة... وقد دعا رسول الله ﷺ بالرحمة للرجل السمح: «رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[1]، وما هي إلا صور من المعاملات اليومية، التي تقتضي قدرًا كبيرًا من السماحة، وفيه الحض على السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحنة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم، وأكثر ما تكون الخصومات في المعاملات المالية، والمناظرات الخلافية، والملاسنات الكلامية، وقلّ أن يسلم فيها من لم يتحلّ بكرم الخلق، وجود النفس، وسماحة الطبع.

---

(١) رواه البخاري

صور السماحة:

ومن صور السماحة التنازل عن الحق أو جزء منه، وإنظار المعسر أو التجاوز عن القرض أو عن جزء منه: «من يسّر على معسرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة»[1]. وهذا ما تسعى الدول الأوربية إلى تطبيقه في بعض حالات المعسرين، وكأنهم يطبقون الإسلام بحذافيره.

ومن أبرز مواقف السماحة أن تكون مع من أساء إليك، كالذي جرى مع أبي بكر رضي الله عنه حين أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة، لتورطه في حديث الإفك، فأمره النبي ﷺ أن يعفو ويصفح، فكفر عن يمينه، وعاد ينفق عليه، وقد وصف الله عباده المؤمنين بأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

والذي يبرز صعوبة التسامح وضرورة مجاهدة النفس تلك الوسوسة التي يوسوسها الشيطان للمسلم بأنه لو تسامح فقد يصفه الناس بالعجز، ويظنون فيه الضعف، وهو ما حله الإسلام في قول النبي ﷺ: «يأتي عليكم زمان يُخيّر فيه الرجل بين العجز والفجور، فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور»[3].

(١) رواه مسلم
(٢) الآية ٣٧ من سورة الشورى
(٣) رواه أحمد

وقد حُرم المسلمون من العلم بميقات ليلة القدر، بسبب انعدام روح السماحة بين رجلين من الأمة: ولك أن تتخيل أن جدل رجلين حرم الأمة كلها من هذا الخير الكبير، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى أكبر من ذلك، فقد يؤدي مثلاً إلى خصومات ثأرية قد تُنتج التقاتل والتناحر بين عائلتين أو قريتين أو بلدين أو أمتين... فلا يليق بالرجل السمح أن يتعنت أو يجادل أو يصيح، ناهيك عن أن يَفجُر في الخصومة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن مفهوم السياسة في العقلية الأوربية والغربية يتمثل في اعتبارها فنَّ إيجاد سبل للتفاهم دون نزاعات أو تصادمات، وما لاحظته في أوربا أن الأوربيين يطبقون مبدأ التسامح فيما بينهم، رغم اختلاف أفكارهم واتجاهاتهم، فبعدما كانوا متنافرين متنافسين، ورغم الحروب التي دارت بينهم، فإنهم تسامحوا وأصبحوا أمة واحدة، وكوّنوا الاتحاد الأوربي الذي يضم ٤١ دولة، وهو ما سعت إليه الثقافة الإسلامية منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان، حيث قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المِراء وإن كان محقًّا»[1].

(١) رواه أبي داود

فهرس المحتويات

إهداء ٥

تمهيد ٧

مقدمة ١١

الإسلام والعلم ١٨

كيف قامت الحضارة الإسلامية ٢٠

كيف نشأت الحضارة الإسلامية؟ ٢٢

نقاط الالتقاء بين الدولة الإسلامية وأوربا ٢٥

١) بلاد الأندلس: إسبانيا الإسلامية ٢٥

٢) جزيرة صقلية ٢٧

٣) حركة الترجمة ٢٩

الأدب ٣٢

الفلك (علم الهيئة) ٤٠

الطبيعة (الفيزياء) ٤٥

الكيمياء ٤٧

الطب والصيدلة (الأقربازين) ٥٠

الإسلام بين المفهوم والتطبيق ٦٥

المرأة في الإسلام ٧٩

معايشة شخصية مباشرة ٨٤

نظرة الغرب للمرأة المسلمة المحجبة ٩٣

مفاهيم عامة ينبغي فهمها على الوجه الأمثل ٩٨

الإسلام والديانات الاخرى ١٠٠

الإسلام واليهودية ١٠١

الإسلام والمسيحية ١٠٢

الإسلام والعقائد الشرقية ١٠٣

الإسلام والاخلاق ١٠٦

الأخلاق مع غير المسلمين ١٠٩

الأخلاق مع الحيوانات ١١٠

التجارة ١١١

من أخلاق الإسلام في الحرب ١١٣

الأخلاق بين الإسلام والفلسفة ١١٥

خصائص الأخلاق ١١٦

الإسلام والسماحة ١١٨

صور السماحة ١١٩

فهرس المحتويات ١٢١